دولة انتخابات

إيهب

سلسلة تقارير صحافية حول انتخابات ٢٠٠٣ في إسرائيل



بقلم: آري شبيط

ترجمة وتقديم: علاء حليحل



13 أوراق إسرائيلية

دولة انتخابات

سلسلة تقارير صحافية
حول انتخابات ٢٠٠٣ في إسرائيل

بقلم:

آري شبيط

ترجمة وتقديم:

علاء حليحل

آذار ٢٠٠٣

سلسلة أوراق إسرائيلية (١٣)

يحررها : **محمد حمزة غنايم**

آذار ٢٠٠٣

تصدر هذه السلسلة عن:



المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
The Palestinian Forum for Israeli Studies (MADAR)

رام الله – شارع يافا – تلفون: ٢٩٦٦٢٠١
فاكس: ٢٩٦٦٢٠٥ – ص.ب ١٩٥٩
e-mail: madar@madarcenter.org

الإخراج والطباعة:

مؤسسة الأيام

رام الله ـ فلسطين

ص . ب:١٩٨٧

هاتف : ٢٩٨٧٣٤١/٤ ٢ (٩٧٢) – فاكس :٢٩٨٧٣٤٢/٦ ٢ (٩٧٢)

www.al-ayyam.com

E-mail:info@al-ayyam.com

فهرس

التقديم

القصّة الحقيقيّة

لعلّ من المجدي التوقفُ في هذا التقديم، على واحدة من القضايا المهمة التي برزت في الانتخابات الاسرائيلية للكنيست السادسة عشرة، والتي جرت في الثامن والعشرين من كانون الأول ٢٠٠٣ . هذه القضية هي انتقال الحملات الانتخابية من الشوارع والمفارق والأحياء، إلى التلفزيونات خصوصًا، وإلى الاعلام عمومًا. هذا الانتقال الذي يُفرغ تدريجيًا مفهوم وممارسة الديمقراطية الاسرائيلية الصُورية، من أبعادها الشعبيّة والعامة، ويدفع بها نحو الموديل الأميركي بثباتٍ وبسرعةٍ.

(يمكن هنا فتح هلالين والتذكير بأن واحدًا من الإسقاطات المثيرة لهذا الانتقال هو تفرّد الهامش السياسي، وعلى الأخص الهامش العربي، في الحفاظ على النهج الانتخابي القديم، وهو ديمقراطية الشوارع والمفارق والأحياء. لم ينبع هذا من تمسك عنيد من جانب الأحزاب العربية بهذا النهج، وإنما نبع بالأساس من أمرين: الأول، إستثناء العرب بشكل يكاد يكون جارفًا، من «الحفلة» الديمقراطية التلفزيونية؛ والثاني، هو طبيعة مسلك وتكوين المجتمع العربي وفهمه لماهية الانتخابات والسيرورة الديمقراطية. فالمجتمع العربي لا يزال محافظًا وتكتليًا في معظمه، وبالتالي لا يخاطر أي حزب عربي بهجر الحلقات البيتيّة، أو بهجر المسيرات والمهرجانات الضخمة، التي تهدف لمخاطبة النزعة الجمعية والتقليدية عند المواطن العربي.)

قليلة هي وسائل الاعلام الاسرائيلية التي شدّدت على المواطن والجوانب الحياتية الخاصة به، في هذه الانتخابات. وعلى الرغم من تأكّد إهتمام المواطنين بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية والمُعاشة في كل الاستطلاعات، إلا أن كل الأحزاب السياسية ركّزت بشكل يكاد يكون قاطعًا على الجانب

الأمني– السياسي في إسرائيل . ولذلك، يمكن القول إن سلسلة التقارير الصحافية الموسّعة المنشورة هنا، بقلم الصحافي آري شبيط من صحيفة « هآرتس »، هي جزيرة وحيدة في بحر الاعلام الاسرائيلي، التي حاولت وضع اليد على النقاط الحسّاسة عند الجمهور الاسرائيلي، وحاولت أيضًا رسم ملامح لهذا المجتمع المتفكك والمتعب، والذي يجرونه إلى « حفلة ديمقراطية وحيدة » في الشرق الأوسط، كل سنتين في المعدل.

من خلال قراءة التقارير التي كتبها شبيط طيلة الانتخابات، والمنشورة هنا كلها، باستثناء تقرير واحد، يمكن التعرف عن كثب على عدة جوانب لم يُولها الاعلام الاسرائيلي الأهمية الكافية. الهدف من هذه القراءات هو الفهم الأعمق والأنجع للتغييرات التي يمرّ بها المجتمع الاسرائيلي، على شرائحه وطوائفه وقومياته المختلفة. أكبر مثال على ذلك هو التقرير الأخير في السلسلة، والذي تركّز حول لقاء مع موطي أشكنازي، مؤسس حزب « لهافاه » (شعلة)، الذي لم يعبر نسبة الحسم، وما لدى أشكنازي ليقوله عن المسار الذي تنحدر فيه اسرائيل، والتشابه الكبير بين « يوم الغفران » في ١٩٧٣، الذي حارب فيه أشكنازي ورأى فشل القيادة الاسرائيلية فيه على أرض المعركة، وبين « يوم الغفران » الذي تمرّ به الدولة العبرية اليوم.

كما يمكن استشراف التمزّق الاجتماعي والطائفي الذي ميّز هذه الانتخابات، وسيميز الانتخابات المقبلة، من خلال لقاء مطول مع تومي (يوسف) لبيد، زعيم حزب « شينوي »، الصرعة الأكبر في هذه الانتخابات. من المثير رؤية الأغلبية الأشكنازية الحاكمة في الدولة منذ تأسيسها، في أحط مراحل تدهورها إلى طائفة أخرى « مضطهدة » في الدولة، تنتهج سياسة القبلية الضيقة، من أجل حماية مصالحها الخاصة. ما يحب طومي لبيد تسميته بـ « نصرة الطبقة الوسطى ».

المنفعة المرجوة من هذه السلسلة، وترجمتها إلى العربية، هي منفعة كبيرة جدًا. فكل باحث اليوم يعنى بالشؤون الاسرائيلية، يمكنه أن يرتكز في محاور بحثه وإستقائه للمرجعيات، من هذه السلسلة (وغيرها بالطبع). كما أن القراءة المعمّقة في هذه الترجمات ستضع القارئ العربي، أينما كان، على عتبة فهم هذه الانتخابات الغريبة، فاتحةً أمامه الكثير من الأبواب والمنافذ المطلة على المجتمع الاسرائيلي الآني، بعيدًا عن الكليشيهات المعروفة والمستهلكة في العناوين الكبيرة. نحن لا نود بالطبع التقليل من شأن العناوين الكبيرة. ولكننا نصبو إلى إضافة الكثير من الأمور

التي يُسقطها الاعلام الاسرائيلي، الرسمي والتجاري، والتي تغيب حتى عن المواطن الاسرائيلي اليهودي المتوسط.

كما أن ظهور هذه السلسلة من المقالات في «هآرتس» هو ليس صدفةً أيضًا. فصحيفة «هآرتس» هي الصحيفة الوحيدة التي تهتم منذ إندلاع الانتفاضة الثانية، بتغطية أخبار المناطق المحتلة، وإبراز مقتل الفلسطينيين اليومي. حتى أن «هآرتس» مرت في أزمة حقيقية، قبل شهور، حين ألغى الكثير من المشتركين فيها إشتراكاتهم في الصحيفة، كإحتجاج على «يسارية» الصحيفة. نحن نعرف أن «هآرتس» هي صحيفة النخبة الاسرائيلية، الاقتصادية والسياسية والثقافية، وهي بعيدة عن أن تكون يسارية، على الأقل في المجالين الاقتصادي والسياسي. ولكن المجتمع الاسرائيلي الذي اعتاد على إعلام متجند مع المؤسسة، في كل أزمة تمرّ بها اسرائيل، يستهجن ما تكتبه «هآرتس» – وهو، بالمناسبة، أضعف الأيمان وليس أشدّه، المرجو من وسيلة إعلام مخلصة للمبادئ الصحافية. من هنا يبدو نشر هذه السلسلة، على كل ما كتب فيها، في »هآرتس« أمرًا مفروغًا منه. ونحن في ترجماتنا عن هذه الصحيفة، لا نلغي أهمية التقارير المنشورة في سائر الصحف العبرية. على العكس، كنا نتمنى نشر مثل هذه التقارير في سائر الصحف الاسرائيلية، وبالتالي ترجمتها هي أيضًا.

كما أن القارئ المتابع للصحافي آري شبيط يلمس فيه تغييرًا نحو المركز. فشبيط، الذي كان من أبرز مدراء «جمعية حقوق المواطن في إسرائيل»، أحد رموز اليسار الاسرائيلي ومحبي حقوق الانسان، عُرف كرمز لليسار الاسرائيلي الصهيوني. ولكنه في هذه السلسلة يبدي الكثير من الامتعاض من هذا اليسار، ويجنح نحو المركز. من هنا أهمية أن ينكشف القارئ العربي للتحوّلات التي يمرّ بها الصحافيون المهمون في إسرائيل، والذين يكتبون ما تقرأه النخب، صانعة القرارات، ويؤثرون عليها.

من أجل فهم أكثر عمقًا وشفافيةً لما حدث في اليسار الاسرائيلي بعد إندلاع الانتفاضة الثانية، يمكن قراءة المقابلة المزدوجة التي أجراها شبيط مع «علَميْ» اليسار الصهيوني: عاموس عوز ودافيد غروسمان. فالاثنان، كاتبان مهمّان جدًا في المجتمع الاسرائيلي، تحدّثا في هذه المقابلة عن أسباب أفول اليسار وعن الخطوات المرجوّة من أجل إعادة إحياء أفكاره ووجوده المؤثر في اسرائيل. بالنسبة

للقارئ العربي، يمكن أن تشكل هذه القراءة مفتاحًا مهمًا لجنوح الاسرائيليين عمومًا نحو اليمين (الأمر الذي تَبدّى في نتائج الانتخابات الهدّامة)، وتخلّيهم عن «اليسار» وعن «اليسار – المركز».

نهايةً، يجوز القول إن عرض هذه السلسلة من التقارير على القارئ العربي، قد يكون فاتحة جيدة لتقوية تعامل العرب، في كل أماكن تواجدهم في العالم، مع الانتخابات الاسرائيلية، كحدث مُركّبٍ وعميقٍ، ولا يمكن إختزاله في الأسباب الجاهزة: رفض السلام، العنصرية، التشدد والاستسلام لشارون. هذه الأسباب، كلٌ على إنفراد، وكلها مجتمعة، هي صحيحة. ولكنها وجهٌ واحدٌ للعملة. الوجه الثاني موجودٌ في أحياء الفقر، وفي أحياء الغنى؛ في غرف المعدمين والموظفين والعمال البسطاء، وفي غرف المثقفين والكتّاب المؤثرين؛ في هامش المجتمع الاسرائيلي الممزق، وفي مراكز إتخاذ القرارات.

من دون الوجه الآخر، يبقى التعامل مع التطورات الاسرائيلية الداخلية، التي تنعكس على سياساتها الخارجية وممارساتها الفعلية، تعاملاً منقوصًا وغير مكتمل. ونحن نعرف أن فهم الآخر جيدًا، هو الخطوة الأولى نحو مخاطبته بأدوات أفضل من أدواته.

علاء حليحل

(١)

نهاية الأمل

نهج التصويت في «غاني تكفاه» يعكس النهج القطري وأيضاً الأمزجة المتشابهة: يأس واعٍ من الوضع، سوداوية لفقدان الطريق. أفيشاي لفين («العمل») يحاول أن يخلق في البلدة جزيرة صغيرة من العقلانية. تسيون أوحيون («الليكود») يفكر بصوت عالٍ في الهجرة.

في العام ١٩٩٢ علّقت «غاني تكفاه» أملها على إسحق رابين. في العام ١٩٩٦ نقلت أملها إلى بنيامين نتنياهو. في العام ١٩٩٩ علقت أملها على أيهود باراك وفي العام ٢٠٠١ عادت ونقلت الأمل إلى أرئيل شارون. الآن، عشية انتخابات ٢٠٠٣، من الصعب أيجاد أي أمل في «غاني هتكفاه» («جنائن الأمل» - المحرر). من الصعب أيجاد أيمان حقيقي بأي قائد إسرائيلي أو بأية طريق أيديولوجية. صحوة هادئة عند اليمين وعند اليسار، عند الحريديم وعند العلمانيين. إذا كان بالامكان تعلّم أمر ما عن إسرائيل الآنية من خلال العيّنة المحلية في «غاني تكفاه»، فإن الاقتراع في إنتخابات ٢٠٠٣ سيكون أحد الاقتراعات الأكثر سوداوية، من بين الاقتراعات التي كانت هنا حتى الآن. هذا الاقتراع الذي يعرف الناس، أنه سيكون

بين ضللان للسبيل وبين ضللان آخر . بين قيادة فاشلة وبين قيادة فاشلة أخرى . وكل هذا في الوقت الذي أخذت تضيق فيه دائرة الضائقة الأمنية والضائقة الاقتصادية والاجتماعية ، رويدًا رويدًا . حتى على بلدة شبعة مثل «غاني تكفاه» أخذت الدائرة بالضيق .

يجب التحفظ : «غاني تكفاه» هي بلدة الوضع الاقتصادي فيها أفضل بكثير من المعدل القطري (٨-٩ في سلم ١٠) . لا يوجد في «غاني تكفاه» عرب ، فيها القليل جدًا من المهاجرين وهي واقعة على أطراف منطقة دان (منطقة المركز وتل أبيب- المحرر) . ومع ذلك من الممكن تعلم أمر أو اثنين من البلدة المدينية الصغيرة هذه ، الواقعة بين كريات أونو وبين بيتاح تكفاه وسبيون ، والتي تحوي بداخلها سكانًا حريديم ، ومتدينين قوميين ومؤيدي «شاس» ، وعلمانيين كُثُرًا ومجموعة محترمة من المحافظين . في انتخابات ١٩٩٩ مثلا ، كانت نسب التصويت في «غاني تكفاه» لأحزاب «العمل» ، «الليكود» ، «شينوي» و«ميرتس» قريبة جدًا من نسب التصويت القطرية لهذه الأحزاب . النسبة المحلية بين باراك ونتنياهو شذّت ببضعة أعشار النسبة المئوية عن النسبة القطرية .

يعيش في «غاني تكفاه» حوالي (١٢) ألفًا . حوالي (١٠٪) منهم حريديم ، حوالي (١٥٪) منهم متدينون ، والباقي محافظون وعلمانيون . النسبة بين الشرقيين والاشكناز هي المناصفة ، مع بعض الزيادة والنقصان . حوالي (٤٠٪) ينتمون للأعشار العلوية ، وحوالي (٢٠٪) للأعشار الدنيا . في شمالي غربي البلدة موجودة المباني المكتظة على إسم يسماح موشيه ، والتي تسكن فيها ثلاث مجموعات «حسيديم» (أتباع مخلصون لحاخام واحد ، «حسيد»- المحرر) معادية لبعضها البعض وكذلك مجموعة من «الليطائيين» (تيار حريدي مختلف عن «الحسيديم» المحرر) التي تعادي المجموعات الثلاث الأولى . في الغرب هناك مباني «الضائقة» التي استوعبت في نهاية الستينيات الهجرة من المغرب . في المركز هناك الشوارع المدورة والمريحة في «غاني تكفاه» القديمة . وقد تبدلت بركسات الخمسينيات فيها ببيوت على نمط «شبريتس» (نوع جديد وقتها من القصارة ميّز جيلا كاملا من العمارة في إسرائيل) ، مسطحة السطوح (بدون قرميد) والكثير منها آخذة في التحول إلى فيللات مزركشة . في الشرق هناك الأبراج الثمينة الجديدة في حي «غفعات سبيون» الجديد ، ومن تحتها «كوتجات» (بيوت

مستقلة بها طابقان يصل بينهما درج داخلي) مصطفة في طوابير ومن حولها الجنائن، ٢٥٠ مترًا، والتي تزدحم على طول الشوارع الهولندية الساكنة.

منذ بدء مقدم السكان المقتدرين إلى البلدة، في مطلع التسعينيات، ارتفع سعر الشقة من أربع غرف، من ١٢٠ ألف دولار إلى ٢٥٠-٢٨٠ ألفًا. وارتفع سعر «الكوتج» إلى ٥٠٠-٥٥٠ ألف دولار. في البلدة ٣٠٠٠ شقة، ١١٠٠ بيت مع أرض ملاصقة، ١٧ حضانة أطفال (منها أربع حضانات حريدية)، ١٧ كنيسًا و ١١ دوّارًا معتنى بها. في السنوات الأخيرة أقيم في «غاني تكفاه» مركز «كانتري كْلَبْ» ومركز مسرحي فخم ومركز جماهيري حريدي. ويوجد أيضًا «مكدونلدز» (كشير) وسوبر فارم و«بليفليكو»، في الأسبوع الأخير ناقش المجلس موضوع شق ممشى طويل في شمالي البلدة إسمها «طيولاري»، وإقامة ميدان جديد للبلدة يُسمى «ميدان ساينه»، ومخطط أيضًا لمجمع تجاري ضخم وأحياء ثمينة جديدة يكون فيها برك بيئية لا يوجد مثلها في البلاد.

هل ضربت سنتان ونصف من حرب الارهاب «غاني تكفاه» ؟ لأول وهلة، لا. «غاني تكفاه» ليست مستوطنة، ليست القدس، ليست مركزًا يأسر الألباب للعولمة. هي ما يشبه العينة الصغيرة من السويّة الاسرائيلية. وعليه، حتى في الحرب التي ليس فيها جبهة داخلية، فإن «غاني تكفاه» هي في المحصلة جبهة داخلية. فمن سيتكبد عناء المجيء وتفجير نفسه في السوبر فارم في شارع الجليل؟ من سيتكبد عناء عملية تفجيرية في حديقة السلام والحب على إسم إسحق رابين؟

الارهاب لم يشل أيضًا الديناميكية الاقتصادية المحلية. خلال الثلاثين شهرًا المليئة بالعنف، نما سكان البلدة بحوالي ١٥٪. أبراج سكنية امتلأت، روضات أطفال أفتتحت، دوّارات سِير أقيمت. صحيح أن أسعار العقارات غير المنقولة تجمدت، لكنها لم تتهاوَ. الكانتري كْلَبْ يضج بالحياة، المركز المسرحي يعج بالدورات، رحلات الجيبات لم تتوقف. ومع أن مجمل المشتريات في السوبر ماركت إنخفض، وإقتناء السيارات الميدانية إنخفض، إلا أن إنهيارًا لم يحدث. حركة التطوير الاسرائيلية جدًا التي يديرها رئيس المجلس، أفيشاي لفين، استمرت في إنتاج المزيد من المشاريع.

الآن يهمّون باستئناف بناء مركز الرياضة مع البركة المسخنة وملاعب السكواش. يهمّون بإتمام حضانة اليوم، وببناء بيت للكشافة. حتى إن عنبال، هيلي ويردين، ثلاث فتيات في الحادية عشرة من عمرهنّ من مدرسة «غانيم»، يهتممن بأن يقلنَ إنهن يشعرنَ هنا بأنهنّ محميات. وعلى الرغم من أنهنَ يرينَ أن أولادًا في أجيالهنّ يتفجرون في أمكنة أخرى في البلاد، إلا أنهنّ آمنات في «غاني تكفاه»، «غاني تكفاه» خضراء وهادئة، وليس فيها مخربون أو مستوطنون.

على المستوى السياسي هاكم الاحساسان الشائعان هنا: يأس ساكن من الفلسطينيين وغضب مكبوت على المستوطنين. من قلب هدوئها النسبي وصلابة نسيج الحياة النسبية، تشع «غاني تكفاه» بأوضح صورة هذين الشعورين التوأمين. من الصعب أيجاد شخص يساري في البلدة يؤمن بالسلام الحقيقي مع الفلسطينيين؛ من الصعب أيجاد شخص يميني في البلدة يؤمن بأنه من الممكن عدم إخلاء غالبية المستوطنات. الجميع تقريبًا يريدون جدارًا فاصلاً لكن القلة فقط يتحمسون له. الغالبية العظمى توافق على إقامة دولة فلسطينية لكن الكثيرين يخشون من لحظة إقامتها. الاجماع واسع وعميق: لا يوجد حل. لا توجد قيادة ولا يوجد حل.

وهكذا، وعلى الرغم من أن «غاني تكفاه» ليست ضحية مباشرة للوضع الاسرائيلي الجديد، إلا أن هوة عميقة تظهر للعيان، بعد الإطالة في الحديث والحفر قليلا في أحاسيس سكانها. في آذار- نيسان، عندما وصلت العمليات ذروتها، كان من الصعب التدريس في المدارس الابتدائية. الطلاب كانوا في حالة هيجان، استصعبوا التركيز، أكثروا من الذهاب إلى المراحيض. في الصفوف الدنيا صنعوا بنادق من ورق. رويدًا رويدًا، حصل تحول من الخوف من العمليات إلى خوف وجودي. إلى درجة أن إحدى المديرات لفتت إنتباه أولياء الأمور إلى أن هناك جملاً يقولونها بدون إنتباه، يفسرها الطلاب بشكل حرفي جدًا. الأولاد يشعرون بالقلق، قالت المديرة، عندما يسمعون جملا عادية مثل «ضاعت الدولة» أو «الدولة لا تسوى شيئًا» أو «انتهينا، يمكن رزم الحقائب»، عندما يسمعون الأهل يقولون إن العرب سيحكمون هنا بعد عشرين سنة.

لذلك كان من اللازم أن تنشأ في المدارس عملية موجهة لخلق الاحساس بالأمن. كان لزامًا الاصرار على الخروج إلى نزهات، لأن عدم الخروج إلى نزهات يعني نهاية الأمل. يعني أن الدولة لم تعد قادرة على حمايتنا، لم تعد بيتًا لنا. مديرة مدرسة «غنيم»، المدرسة الانسانية في «غاني تكفاه»، تنقلت من صف إلى صف وقالت لطلابها أقوالا، أشك في أن أية مديرة مدرسة عادية في الدولة، اضطرت لقولها لطلابها. دولة إسرائيل هي دولة قوية، قالت لهم. وعشية يوم «الذكرى»، عندما وقف طلاب المدرسة في الطابور وانتظروا الصافرة، مزقتْ فجأةً صرخةُ طالبة في السابعة من عمرها، الصمتَ: دولة إسرائيل هي دولة قوية. أفيفيا قالت إن دولة إسرائيل هي دولة قوية.

أفيشاي لفين، في الواحدة والخمسين، عضو فعال في حزب «العمل» منذ الثامنة عشرة من عمره، غير متأكد من أن دولة إسرائيل هي دولة قوية. يشعياهو لايفوفتش صدق في كل ما قاله، قال. ما دمنا شعبًا محتلاً لن يكون بوسعنا أن نكون أقوياء. حتى الـ(٦٧) كنا مثل القبضة المحكمة التي كان بوسعها أن تحتل الشرق الأوسط برمته، ونحن الآن يد مفتوحة يمكن لكل شخص أن يدخل إليها. وسيكون إنفجار كبير، هذا واضح. إما على شاكلة صواريخ «السكاد» التي ستقع هنا قريبًا، وإما على شاكلة حرب برية كبيرة مع نصف المسلمين. لذلك فإن ما يقلقه ليس الوضع الاقتصادي ولا الوضع الاجتماعي. ليس هذا ما سيقضي على الدولة. إنعدام الأخلاقيات في الاحتلال هو ما سيقضي على الدولة. كل المصيبة التي حلت علينا منبعها فقط من أن الليكوديين والمستوطنين هم محبون للعرب ويريدون العيش مع العرب. في الوقت الذي أصرخ فيه أنا، أفيشاي لفين، أنا أكره العرب. لذلك أريد حدودًا بيني وبين العرب. تمامًا مثلما يقول متسناع. كل كلمة يقولها متسناع. أخيرًا هناك من يقول الحقيقة.

لقد جاء إلى «غاني تكفاه» عن طريق الخطأ تقريبًا. اشترى شقة بثمن بخس في السبعينيات عندما كان رجل أمن في سلطة المطارات، ووجد نفسه في لجنة أولياء الأمور وانجرف إلى داخل السياسة المحلية. عندما عرض ترشيحه لرئاسة السلطة المحلية لُقّبَ بـ«أشكناتسي» (دمج بين: أشكنازي ونازي- المحرر). لكن منذ انتخابه في العام ١٩٩٣ لرئاسة السلطة أبرم حلفًا

مع «شاس» وتوصل إلى إتفاقيات مع «الليطائيين» (تيار حريدي- المحرر) وحظي بدعم غالبية السكان (٧٤٪ في الانتخابات الأخيرة) وبنى وبنى ولم يتوقف عن البناء. بحيث أن هذا الأشقر في بدلته الزرقاء ومسدسه المربوط إلى رجله، عندما يصطحبني في جولة في سيارته «الفان» البيضاء، فإنه يسوق كـ«الشريف» المحلي الذي يعرض على الملأ ما جناه. جهاز التعليم المحوسب، الحدائق العامة، شجر النخيل على طول «الجُزر» في الشوارع.

مصيبة الدولة الثانية هي الدين، يقول ليفين. لأن الدين يعني الكل، أو لا شيء. لذلك فإنه من الممكن التوصل إلى نتائج، عندما يكون على رأس السلطة علماني فقط. وعندما يقول لي الحريديم في «غاني تكفاه» إننا شعب خُلق مع تعليمات المنتج، وعندما يقولون لي إن تعليمات المنتج هي «شعب يعيش لوحده»، وشعب مختار، واذكر ما فعله بك العدو الشرير، عندها أقول إن تعليمات المنتج هذه هي لشعب هو قنبلة موقوتة. هذه تعليمات منتج لدولة في طريقها للفناء.

نعم، بالتأكيد، لرئيس مجلس «غاني تكفاه» رؤيا.. وفي الوقت الذي يريني فيه مركز المسرح الضخم، الشبيه بالصَّدَفة، الذي حصّله في صفقة مع «أفريكا - يسرائيل» (شركة بناء وإستثمار- المحرر)، يقول إنه لو كان (٥٠٪) من طلاب الصف الأول في العام ٢٠٠٢ من الحريديم والعرب، فإن معدل حياة الدولة لن يتجاوز السنة التي يصبحون فيها في الصف الثاني عشر. وفي الوقت الذي يريني فيه حضانة اليوم التي حصّلها من شمعون شيبس (مدير مكتب رئيس الحكومة في حكومة رابين- المحرر) وفؤاد (بنيامين بن إليعازر) وأورا نمير (وزيرة في حكومة رابين)، يقول إنه من الواضح أن لا دولة هنا. في عمله كرئيس سلطة محلية هو يعرف: لا إدارة، لا شرطة، لا محاكم. لا وزارة تربية، لا تطبيق للقانون. الوزير الأخير الذي فهم ما يجري وكان بالامكان التوصل معه إلى نتائج كان أرييه درعي. بينما كل الوزراء الحاليين هم كسولون، مضللون. لا يقولون الحقيقة عن الوضع الاقتصادي ولا يقولون الحقيقة عن الوضع الأمني، يكذبون طيلةالوقت. يبيعون الأكاذيب للشعب طيلة الوقت.

لا، تشاؤمه غير متعلق بأن أمه كانت الرقم (١٧) في قائمة شيندلر. هي نفسها ظلّت متفائلة، صهيونية. لكن أبناء جيله، وحلقته الاجتماعية، الذين يجتمعون في ليالي الجمعة،

يرون الأمور بطريقة مختلفة . لا يحبون فكرة إرسال الأبناء للخدمة تحت إمرة شارون وليبرمان وبيبي . لا يحبون فكرة الموت من أجل «حفات غلعاد» ، قسم منهم لا يفهمون مطلقًا لماذا يجب إخلاء المستوطنين . يجب ببساطة تركهم هناك ، أن يمكنوا العرب من القضاء عليهم .

هناك مشكلة إجتماعية . هذا صحيح . الهوة بين العُشر الأعلى وبين العُشر الأدنى كبرت . لكن الفقراء الحقيقيين هم الأشخاص الوحيدون ، الأمهات المعيلات ، أطفال الحريديم . الباقي هم خريجو ثقافة الفقر . وفي «غاني تكفاه» يعرف أن غالبيتهم يأتون للحصول على مخصصاتهم وهم يسوقون سيارة خاصة . قسم من الأمهات يصرفن مئات الشيكلات على شراء جينز مصمم للابنة ، لكنهنّ يأتين إليه بعد ذلك للتشكي من أنهن لا يملكن النقود لشراء الطعام . من هنا يتضح أن المعطيات عن حجم ظاهرة الفقر هي مضخمة جدًا . مشكلة الدولة الحقيقية هي أن (٣٠٪) يحملون على ظهورهم (٧٠٪) . هذه هي المشكلة الحقيقية . في هكذا وضع لن نستطيع الاستمرار طويلاً .

الموضوع الطائفي ، الذي عاد إلى الموضة مجددًا ، لا يقلق أفيشاي لفين أيضًا . هذا ما يشبه القمامة المكررة ، يقول . نسبة الزيجات المختلطة في البلاد هو (٣٠٪) . وكل موضوع طائفي يُطرح قبل الانتخابات ، يحتضر بعد شهر منها . ومن تجربته يعرف : لا يصدق كل من يقول له إن السود لا يدعمونه ، ولكن قبل شهر من الانتخابات يقولون دائمًا إنه يكره السود (الحريديم- المحرر) . وهذا غير صحيح . على العكس . لأنه يكتشف في الكثير من المرات أن «إنفتاح» الليكوديّ للآخر هو أمر مضلل . في الكثير من المرات يُعتبر الليكوديّ دافئًا وذكيًا حتى لو كان شرقيًا . وبالذات «الرخويات الشماليات» (كناية عن مصوتي «العمل» و«ميرتس» الذين يأتون من شمالي تل أبيب- المحرر) هم من يبدون في النهاية كقمامة . أكثر من مرة يجد نفسه يفضّل هؤلاء الدافئين الرّافسين على «الرخويات» الحقيرين الذين يهربون من الوضع إلى أجندة «الهومو- لاسبيان» وإلى أجندة حقوق الفرد وإلى أجندة تومي لبيد (زعيم «شينوي») ، معروف ككاره للحريديم - المحرر) . ولا يفهمون أين يعيشون ويتصرفون كطبقة مهزومة ومتقوقعة ويبكون طيلة الوقت بأنهم أخذوا منهم الدولة . بأن الدولة ليست لنا بعد . ويفعلون ما اقترحه مئير فيزلتر (شاعر معروف- المحرر) : ينسحبون إلى ضفاف اليركون

(إسم النهر الذي يمر في تل أبيب- المحرر) .

ولكن قد يكون أنني أتصرف بهذا الشكل أيضاً ، يقول أفيشاي لفين وهو يأخذني إلى خط البيارات المقتلعة والحقول الرمادية المفتوحة التي سيبني عليها قريبًا الأحياء الفخمة الجديدة ، ذوات البرك البيئية . في هذه الحقول سيشق قريبًا الـ «طيولاري» ، سيرصف الميدان بالحجارة الغالية . قد يكون أنني أيضاً ما يشبه يوحنان بن زكاي ، يقول أفيشاي لفين ، عندما رأى الخراب يقترب طلب لنفسه «يفنيه» ، و«غاني تكفاه» بالنسبة لي هي ما يشبه «يفنيه» ، ما يشبه جزيرة صغيرة من العقلانية أحاول أن أحميها بكل قوة . هذا إنساني في النهاية . في كل البلاد يتصرفون هكذا . بسبب إنعدام القدرة على التأثير على «الماكرو» (العام) ، نهرب إلى «الميكرو» (الخاص) . ومن القومي نهرب إلى الجماهيري المحلي ، ومن الجماهيري المحلي إلى الحي ، ومن الحي إلى البيت . ونجتمع عائلة عائلة في داخل البيت . لأن كلٌّ لنفسه الآن . في كل هذا الكذب ، وفي كل هذه الكارثة ، كُلٌّ لنفسه .

عندما يتذكر تسيون أوحيون «المعبراه» (خيم وبركسات مؤقتة بنيت للمهاجرين اليهود من الدول العربية في منتصف الستينيات – المحرر) المقامة من البركسات ، التي كانتها «غاني تكفاه» ، فإن ابتسامة من الشوق تستحوذ على محيّاه . البيارات المحيطة ، الحقول الرحبة ، الشعور بلمّ الشمل . وهؤلاء أتوا من تركيا ، وهؤلاء من مصر ، وهؤلاء من رومانيا ، لكنهم جميعًا عاشوا في هرمونيا . جميعهم تقريبًا محافظون وليسوا متدينين ، جميهم تقريبًا مستورو الحال وليسوا فقراء معدمين . في الثمانينيات فقط ظهرت «شاس» ، وفجأةً بدأوا بالسؤال من يكون «الشمالي» ومن يكون «العرص» (تجيير للكلمة العربية للدلالة على اليهودي الشرقي) . من أشكنازي ومن «مغرب» . هو بنفسه «مغربي» ، من مواليد ٥٩ . صاحب متجر الـ «بليفليكو» والكشك المجاور له . واليوم رئيس قائمة «الليكود» في مجلس «غاني تكفاه» ، وعضو مركز «الليكود» .

خمسمئة وستون شخصًا انتسبوا السنة لـ «الليكود» ، أربعة أضعاف المنتسبين في الانتخابات الماضية . إنتسب معتمرو «الكيبات» (الغطاء الصوفي الصغير المدور) المقتدرون ، إنتسب رجال مركز ممن جربوا باراك واكتووا ، إنتسب محافظون كُثُر عادوا إلى البيت من

«شاس» ، لا شك في أن «شاس» ستتحطم في الانتخابات القريبة. ستحصل على نصف ما لديها الآن. ومثلما على المستوى القطري هكذا في «غاني تكفاه» أيضًا ، قادتها متنازعون فيما بينهم ، يضعفون. توزيعة الأموال والوظائف استنفدت نفسها والموضوع الطائفي لا يؤثر بعد ، وعدد الذين يتركون الدين يزيد بكثير عن عدد الذين يتدينون. حتى الحُجُب لا تنفع اليوم. كفى ، إنتهى.

نحن نجلس في مقهى «كابولسكي» عند مدخل البلدة ظهيرة يوم الجمعة ، (٣٠) ساعة بعد العملية في الباص في خط رقم (٢٠) في كريات مناحيم ، القدس. أنظر كم هو خالٍ هنا ، يقول أوحيون. إفهم أنه في «غاني تكفاه» أيضًا ، ما يهم الناس هو الأمن ، وليس الاقتصاد. حتى لو كانت هناك مشاكل ويشدون الحزام ويجب تزويد أكثر وأكثر من العائلات بسلة معونات غذائية ، يبقى الحسم في النهاية للأمن الشخصي. من سيعرض الأمن الشخصي سيفوز. لكن الناس بدأت تفهم أنه لن يحل الأمن الشخصي. أن أحدًا لن ينجح في وقف العمليات. ولذلك كل ما يمكن فعله هو أن نكون صبورين ، أن نأخذ نفسًا عميقًا ، وأن نتحلى بالصبر.

من هنا تأتي قوة شارون ، يقول. ليس أن الناس صاروا يمينيين. حتى غالبية الناس في «الليكود» ليسوا من اليمين. لم يعودوا يكرهون العرب. يغضبون على العرب عندما تحدث عملية فقط. والجميع تقريبًا يدركون أن لا تبرير لمستوطنة من عشرة أشخاص ، يحرسها عشرون جنديًا. لكن بعد بيبي وبعد باراك لم يعد الناس يؤمنون بالحلول السحرية ولا يريدون أمرًا قصير الأمد وسريعًا ولكنهم يفضلون عمليةً طويلةً وحذرةً. السير بين النقاط ، كما يفعل شارون ، عدم التخاصم الواحد مع الآخر مثلما لا يتخاصم شارون. وعدم إرتكاب الخطأ ثانيةً. عدم الوقوع ثانيةً في الشرك.

مرةً ، كانت هناك جدالات كبيرة بين اليسار واليمين ، يقول أوحيون. في «غاني تكفاه» أيضًا كانوا يتعاركون بشدة. «ميرتس» كانت منبوذة ، «السلام الآن» كانوا خونة. لكن الأمر اليوم ليس كذلك أبدًا. اليوم يجلسون سويةً «أشكرى» ، وتكاد الفوارق تختفي بين مؤيدي ليبرمان ومؤيدي سريد. الكل يعرف أن لا حل ويبحثون عن طريقة للعيش من دون حل.

والجميع يريد الانفصال، الجميع يريد جدارًا، الجميع أدرك أنه من غير الممكن العيش مع الفلسطينيين. لكن الجميع يريد أن يتم الفصل بحكمة. ومع أن الجميع يبحث عن الأيام الهادئة، إلا أنهم يعرفون أن الأيام الهادئة لن يجلبها اليسار ولا اليمين. ليس هناك احد اليوم بإمكانه أن يرسم لك هدوءًا ما.

وجه أوحيون لطيف. عيناه حزينتان بعض الشيء. يضع على يده ساعة غالية ويلبس قميص «لا كوست» لونه خوخي. في الماضي كانت لديه خلافات معينة مع القانون ولكن خلال السنين نجح في الجَسْر عليها. زوجته من مواليد فرنسا، لديه ولدان في العاشرة والثانية عشرة.

ليس صحيحًا أن الناس لا مبالية، يقول. ببساطة، العالم الذي عشنا فيه قبل ثلاث سنوات يختلف عن العالم الذي نعيش فيه اليوم. كوكبان مختلفان. في تلك الأيام اعتقدت بأن هناك ضوءًا في نهاية النفق، ولكن اليوم تعرف أن لا ضوء هناك. في تلك الأيام كان بوسعك أن ترى أمرًا ما مضيئًا في المستقبل، اليوم ترى أمرًا معتمًا أكثر فقط. وحتى في مكان محمي مثل «غاني تكفاه» فإن العمليات تهز الناس. تستنفد الكثير من القوى النفسية، هذه العمليات. تخفض الطاقات عند الناس.

أنا أرى ذلك في الكشك، يبتسم أوحيون. في اليوم الذي يلي العملية، لا يقترب الناس من «البمبا» (نوع شائع من المنقرشات- المحرر)، لا يأخذون مكسرات. يأتون، يشترون السجائر، يقولون «هاي» قصيرة. بعد يومين أو ثلاثة فقط، يبدأون بالانفتاح ثانيةً، بالسؤال عن حالي، بالتحدث. وفقط بعد أسبوعين تقريبًا يعودون إلى المعتاد نهائيًا. ولكن عندها يحل موعد العملية القادمة.

وهذا ليس في الكشك فقط. هذا يحدث في الكثير من الأمور. وهذا ليس في «غاني تكفاه» فقط، وإنما في كل مكان. أكثر صعوبة مما تتصور. أكثر صعوبة مما يُكتب في الجرائد. لأن فيلم السنتين ونصف السنة الأخيرة بيّن لنا بأنه لا ينوي الانتهاء أبدًا.. وفي كل مرة تعتقد فيها أن الأمور تقترب من نهايتها، تبدأ من جديد. وهذا يتجذر عميقًا، عليك أن تعرف. في العائلات يتجذر أيضًا، وبين الأزواج أيضًا. حتى أنه يؤثر على الجنس. كأن حياتنا

تقلصت جدًا. أخذوا منها النكهة. خفضوا من معيار الرغبة.

زوجتي أتت من أوروبا بالصدفة، يقول تسيون أوحيون. لدينا جواز سفر ولدينا عائلة تضغط علينا طيلة الوقت. هذا ليس طبيعيًا، يقولون لنا. لا يمكن العيش هكذا. وعندها، أحيانًا، عندما تحصل عملية ما مثل أمس، تبدأ الأفكار بيني وبين زوجتي. وأحيانًا تسأل عن الوجهة في كل هذا. وأحيانًا عندما نتحدث نفكر في أن نجد نفسينا في مكان آخر. ربما لا يكون هذا المكان هو المكان الصحيح لتربية الأطفال. سنة أخرى هكذا وسنة أخرى هكذا، وبعدين؟ الدماغ البشري غير قادر على إستيعاب هذه العمليات بهذه الوتيرة ولمدة طويلة كهذه. حماتي صدقت: هذا بالفعل غير طبيعي. هذا ليس بالأمر الذي يستطيع الناس العاديون أن يحيوا معه. وعندها، أحيانًا، تقول كفى.

حاليًا، هذه أحاديث فقط. لكن حقيقة أننا نتكلم. ننظر إلى الأولاد يكبرون ويتحدثون. وفي المجمل أنا لست في بارانويا. أنا جدّ واثق بدولتنا وبقوات الأمن. ولكن إذا حصلت عمليات كثيرة أخرى، مثل «الدولفيناريوم» أو تهديد عراقي، فإنني لست متأكدًا من أن على أولادي أن يتلقوا كل ذلك. لم يصل أولادي السن التي عليهم أن يثبتوا فيها بأنهم وطنيون. ولذلك، إذا سنحت فرصة ما لأن يخرجوا من هنا وأن يحيوا مع جدتهم في باريس، فإنني لا أمانع أبدًا. سيكون شعوري أفضل بكثير لو لم يكونوا هنا.

يوم الجمعة، قبل المساء، والهدوء في «غاني تكفاه» يتعمق. الحوانيت في المركز التجاري تنغلق، المقاهي القديمة تنغلق. ولكن في المركز الجديد في حي «غفعات سبيون» الجديد، كل شيء مفتوح، وكأنه جزء من توازن ذكي وناعم بين المتدينين والعلمانيين. خلية الكشافة التي إلى جانب برج الماء القديم تعج بالنشاط والأولاد الفرحين، الضاجين، مبددي الخوف.

وفي الوقت الذي تنتهي فيه جنازات الضحايا الأخيرة، يجلس مهندسو البرامج ومهندسو المعدات وأطباء أسنان، العمود الفقري الاسرائيلي، في الحدائق الصغيرة، التي تلف «الكوتجات» المصطفة في حي «غفعات سبيون» الجديد، ويحاولون استنشاق البعض من الهواء. ويجلس المستقلون وأصحاب المصالح الصغيرة في حدائق بيوت القدامى ويحاولون هم أيضًا أن يستنشقوا البعض من الهواء. ويرتشفون القهوة ويمضغون من كعكة السبت، في نهاية

أسبوع من العمل الشاق والعمليات الصعبة والضغوطات الاقتصادية المتزايدة، ونسب الضريبة الهامشية العالية ودفوعات القرض الاسكاني المنهكة، وانعدام الجدوى السياسية.

هناك أمر مثير للانطباع في «غاني تكفاه»، أمر ما جدي ومحترم في هؤلاء الاسرائيليين، أبناء الطوائف المختلفة، والمعتقدات المختلفة، المتواضعين. هناك أمر ما محفز وصلب في هؤلاء الاسرائيليين الرزينين الذين يحاولون أن يصنعوا مكانًا في لا مكان. ويحاولون أن يكونوا أناسًا في مكان خالٍ من الناس. وأن يكونوا كرماء بشكل معقول، ورزناء بشكل معقول، وأن يمنحوا مستقبلاً لأبنائهم. وفي خضم كل القوى المعادية من حولهم، أن يحاولوا ويحافظوا على نهج حياتهم. أن يحاولوا الحفاظ على البعض من العقلانية، أمام المشهد المُسود لجبال السامرة والقدس.

أفيشاي ليفين يقدر أن اليمين سيفوز بفارق يصل إلى (١٠٪). فقط في حال أن متسناع سيتحدث ليل نهار عن إخلاء المستوطنات، فسيكون لديه الاحتمال بالوصول إلى (٢٧) مقعدًا. طومي لبيد هو من سيقطف ثمار هروب اليسار العلماني من مواجهة إنهيار حلمه.

تسيون أوحيون يقول إن متسناع هو طائر غريب. أمين، ولكن بارد. وإذا استمر في أن يبدو أشكنازيًا وبعيدًا إلى هذا الحد، وإذا صوّت أشكنازيو تل أبيب فعلا لتومي لبيد، فإنه من الممكن، وفي المحصلة، أن يكون الموضوع الطائفي هو الموضوع المؤثر. وربما قد تنجو «شاس» من التحطم الكلي. لبيد منحها من ثلاثة إلى أربعة مقاعد في ١٩٩٩ وقد يفعل ذلك هذه المرة أيضًا.

ولكن لا لفين ولا أوحيون ولا الآخرين يتطرقون إلى خط الانتخابات على أنه أفق للتفاؤل أيًا كان. النفور عند الجميع من السياسيين أقوى من الغضب على الحريديم والمستوطنين والفلسطينيين. وفي نهاية اليوم، جواب «غاني تكفاه» على حرب الارهاب الكبيرة ليس جوابًا سياسيًا. جواب «غاني تكفاه» هو مجموعة الغناء فيها ومباريات كرة القدم قبل الغروب ودورات الإثراء للأولاد. جواب «غاني تكفاه» هو مقدم الجميع إلى مركز المسرح، في يوم الجمعة، للغناء سويةً أغانيَ إسرائيلية. أن يغنوا معًا «من يعطيني دربًا»، أن يغنوا معًا «كيف أخطأنا في الوصول إلى تلك الأرض الشمسية، التي لم نجدها بعد»،..

(٢)

هذا لا يستوي مع الحياة

وحدة «الصدمات» في مستشفى هداسا عين كارم، بعد «خط ٢٠» وومباسا: طبيب جراح، مسؤولة معلومات للعائلات، عامل وممرضة، يديرون حرب بقاء في الفوضى، ويحاولون أن يفهموا ما يحدث لهم، أن يصيغوا حلا يوقف هذا الكابوس

١- عوزي يزهار، جراح قلب - صدر

ما هي وجبة العشاء التي كانت على وشك أن تُقدّم؟ الوجبة الأولى بندورة محشوة بجبنة الماعز، الوجبة الثانية حساء لحمة، الوجبة الثالثة شريحة لحم «أنتريكوت» على الفحم، الوجبة الأخيرة «تارت تاتان»، وكل هذا على شرشف أبيض ناصع، في أوعية فرنسية ناعمة من الخزف، مع نبيذ أحمر معتق يندمج في جمالية الحد الأدنى الذكية، في بيت الأصدقاء في «مفسيرت تسيون»، الذين دعوْا عوزي يزهار إلى وجبة مساء السبت.

لكن في السابعة والنصف وصل نداء من غرفة الاستقبال في المستشفى، عملية إطلاق نيران في الخليل، وبعد ربع ساعة، عندما دخل إلى وحدة «الصدمات» في هداسا عين كارم،

بدت الوحدة كساحة وغى. كل هؤلاء الجنود الشبان وإصاباتهم العميقة والكثير الكثير من الدم. تكفي ٢٠ أو ٣٠ سي سي على الوجه ليكون المشهد غير جميل، يقول، وهنا فقد الناس نصف ليتر، وأحيانًا لترًا كاملاً.

في المرحلة الأولى يُلقب كل المصابين بمجهولي الهوية. المجهول ١، المجهول ٢، المجهول ٣. هناك شيء صحيح في هذا، يقول يزهار. لأن عليك أن تنتقل فورًا إلى جاهزية طبية، وألا تفكر في السياق. القصة الانسانية، الشخصية، التراجيديا- هذا ستقرأه غدًا في الجرائد. ومن كل العمليات الكثيرة التي وقعت في القدس الغربية في السنتين الأخيرتين يذكر يزهار حالةً واحدةً فقط، عرفوا حجمها الانساني من غرفة «الصدمات»، كان هذا ولدًا مصابًا إصابةً بالغةً صرخ بأنه يريد اباه وأمه. لكننا كنا عرفنا في غرفة الاستقبال أن امه وأباه قد قُتلا، يقول يزهار.

الجندي الشاب من الخليل الذي استقبله ضمن مسؤولياته، كان مصابًا إصابةً بالغةً جدًا: رجل محطمة، جرح عيار ناري في الرقبة، نزيف حاد. لكن ما كان مطلوبًا هو تجاهل ما يجذب العين والحرص على ترتيب خطوات الـATLS (Advanced Trauma Life Support). بادئ ذي بدء، يجب ضمان فتح المجاري الهوائية، بعد ذلك ضمان جهاز التنفس، بعد ذلك تقدير حجم الدم، بعد ذلك فحص للأعصاب، بعد ذلك مسح للبحث عن إصابات. لأن أكثر ما يهم في أوضاع الصدمات هو الحفاظ على سلم الاولويات الوجودي. الوصل لجهاز التنفس، ونقل الدم. وصورة للصدر، صورة للعمود الفقري العلوي. وفورًا، خلال ربع ساعة، نقل الشاب النازف إلى غرفة العمليات. محاولة وقف النزيف الحاد بعملية جراحية.

يزهار يحرص على أقواله جدًا. يحرص على جسده ايضًا، على غذائه، على ملبسه. هو رجل حسن المظهر في الرابعة والأربعين من عمره، من مواليد القدس. متزن، مدوّت، حذر. جراح ممتاز. لاحقًا، تبدأ الأمور بالتغلغل داخلا، يقول. بعد أن يكون المصاب أدخل إلى غرفة العمليات وبعد أن تكون مررتَ بين المصابين الآخرين للفحص ولرؤية ما إذا كانت لديهم أيضًا إصابات في القلب والصدر. وعندما ترى كيف تفرغ غرفة الاستقبال رويدًا رويدًا،

ويتبعثر الجرحى، ويغسل العمال الدماء عن الأرض، عندها فقط تسأل نفسك، لحظة، ماذا حصل هنا؟ هل أواصل برنامجي، وأذهب إلى العشاء؟ وتقول نعم. سأذهب. لأنك تسأل ما البديل؟ تُدخل نفسك إلى خزنة؟ تجلس في البيت وتبكي؟ عندها تستحم وتعود إلى الملابس السوداء وتخرج إلى الشارع المظلم من عين كارم إلى «مفسيرت تسيون»، وفجأة يضربك الأمر. كل هذه الفوضى تضربك.

إلى جانب الطاولة البيضاء لا تقول أية كلمة، طبعًا. لأنك لا تعتقد أنك بحاجة إلى هذا العلاج، إلى الكشف عن مشاعرك وتهويتها. لن يكون من العدل بمكان أن تلقي على الآخرين ما مررتَ به. الدم الذي لطخ ملابسك، المناظر، رائحة اللحم المحروق. والجميع الآن في هذه البلاد يعيشون هذه الفوضى. وكل ما يختلف عندك هو أنك مسستَها جسديًا. رأيت الفوضى العارمة تستشيط وسط أنظمة جسد هذا الجندي الشاب، الآخذة بالانهيار.

في آرائه هو في اليسار. «ميرتس» وأكثر لليسار. والانجراف نحو اليمين الذي يتحدثون عنه، لا يشعر به عوزي يزهار أبدًا. من جهته فليعيدوا كل المناطق، وليعطوا الفلسطينيين دولة، وليعطوهم أيضًا نصف القدس. فمن الواضح أن هناك منطقة جغرافية معطاة يجب تقسيمها بين إثنين. فليقسّموها، نقطة. وكل هذا الأمر عن أرض إسرائيل والدين والعلاقة التاريخية هو أمر غريب جدًا في نظره. لغة لا يفهمها، صينية بالنسبة له.

عوزي يزهار لا يقبل الادعاء أنه لا يوجد مع من نتحدث. لإنه لو لم يكن مع من نتحدث، فيجب التحدث مع أنفسنا. وإذا كان السلام مع الفلسطينيين خرافةً، فإن علينا أن نمد الخيط بأنفسنا من دون سلام. لا يجب أن تتجول الدبابات في أزقة جنين وبيت لحم، يجب أن تكون على الخط الأخضر. كل هذه التقنية حول الدخول إلى رام الله والخروج من رام الله لم تثبت نفسها. وهو لا يفهم كيف لم يخرج هؤلاء الناس إلى الشوارع، بعد سنتين كاملتين. كيف لا يصرخ الناس بأن هذا روتين حياة لا يمكن العيش معه. ممنوع العيش معه.

هناك مصطلح في الطب، يقول: «It's incompatible with life»، هذا لا يستوي مع الحياة. والوضع الذي نشأ هنا هو بالضبط هكذا: لا يستوي مع الحياة. لأن ما يحدث هو ليس حربًا مثل الأيام الستة، لها بداية ونهاية

وهدف، وإنما وضع مجنون كهذا تختلط فيه الانفجارات بالحياة العادية مرةً بعد مرة. وعندما ينحصر الأمر في مرة واحدة، جيد. كارثة لمرة واحدة، ومرتين هذا محمول أيضاً. لكن عندما يكون هذا الوضع واقعًا مستمرًا، فإنه يتحول إلى كابوس. شيء ما يوضح جدًا هذا الشعور بأن الضحايا هم ضحايا العبث.

وعندها، عندما تجلس في البيت وتقرأ كتابًا وتستمع لموسيقى الجاز، تجد نفسك خلال عشر دقائق في جهنم، تقول إن هذا ليس منطقيًا. لا يمكن أن يحدث. وعندما تذهب إلى العشاء وتأكل شريحة «الأنتريكوت» على الفحم، تقول إن هذا ليس واقعًا يمكن لبني البشر أن يعيشوا بمعيته. هذه الحياة لا تستوي مع الحياة.

٢- نافا برفرمان، تشخيص المصابين ومعلومات للعائلات

نافا برفرمان، في الـ ٤٩ من عمرها، أم لثلاثة، تعيش في «تسور هداسا»، في الأيام الاعتيادية تركز عمل مركز صحة المرأة في هداسا عين كارم. في أيام العمليات التفجيرية تكون مسؤولة عن الطاقم العلاجي في مركز المعلومات للعائلات في ساعة الطوارئ.

«في الـ ٦٩ فهمت وقتها أن أمرًا ما هنا ليس على ما يرام. عشنا في «بيت زايت» وبعد الحرب، فجأةً، توقف أبي واخي عن الذهاب إلى العمل في البيارة لأنه أصبح لدينا عرب يعملون من أجلنا. وهذا ضايقني. كان في هذا نوع من الدنس. في يوم واحد بدأنا بالتصرف مثل حكّام كبار، أصحاب سلطة، أسياد لشعب آخر.

«لذلك كنت فعالة في «سياح»، لذلك ذهبت بعد ذلك إلى مظاهرات «سلام الآن»، واليوم أيضًا أذهب إلى المظاهرات. خطأنا الأكبر كان في عدم إعادة المناطق فورًا. وهذا رأيي اليوم: الفصل. أن ندعهم يعيشون وأن يدعونا نعيش. ربما بعد ذلك سيأتي السلام أيضًا. حيرتي هي في من سيخدم هذا الموضوع الآن أكثر: «العمل» أم «ميرتس»؟.

«لم نفهم في العملية الكبيرة الأولى في العام ١٩٩٦. اعتقدنا أن هذا لمرة واحدة. لكنني أذكر أنني أسبوعًا بعد ذلك، عندما وقعت العملية الثانية، فهمتُ فجاةً. ومن خلال معالجتي للعائلات فهمتُ أننا سنحيا على هذه الشاكلة: من عملية إلى أخرى. وكل ما تبقى فعله هو

الصلاة لئلا يحدث هذا لأولادي، ولسلامة أقربائي. لأن هذا لن ينتهي.

«مهمتنا هي تشخيص المجهولين في أسرع وقت. فقط عندما يكون أمامك اسم ووجه، فإنه بإمكانك أن توفر المعاناة على الناس. لكن في مثل هذه المواقف، لا يوجد للأشخاص اسم وليس لهم وجوه دائمًا. ما أفعله هو أن أدخل إلى داخل غرفة العمليات وأن أصور. كلما صورنا أبكر كلما كان أفضل: بعد ذلك تنتفخ الوجوه، تتشوه، تتغير كثيرًا. ولكن إذا كانوا في البداية ممزقين أو مصابين ابحث عن علامات فارقة. أسوارة، قرط، ثقب قرط. وأسأل الطاقم ما إذا رأوْا ندبة خاصة، أو خالاً.

«في حالات كثيرة نضطر للاعتماد على الملابس. كل الملابس التي يمزقونها عن الجريح تجمعها الممرضات في أكياس خاصة به، بحيث إذا وجدت في الكيس مثلا كنزة برتقالية، والأم قالت لي إن ابنتها ارتدت في الصباح كنزة ليلكية، عندها يمكنني أن أجلبها لها لترى بعينيها. ولكن بما أن الكنزة ممزقة ومشبعة بالدماء، أقص منها قطعةً صغيرةً بحسبها يمكن أن تتعرف الأم على اللون وعلى النسيج. بحسبها يمكن أن تعرف ما إذا كانت الفتاة الميتة هي ابنتها أم لا.

«هذا الأمر هو الأصعب على الاطلاق. لأنك تجلب للأهل القرط أو الخاتم وفجأةً يعرفون. لكنهم أحيانًا لا يريدون أن يعرفوا. أحيانًا حتى عندما تصطحبهم إلى الداخل للتشخيص فإنهم لا يريدون أن يعرفوا. وأنت تراهم يدورون حول الجثة التي ما زالت حارة ومن الواضح جدًا أنهم يعرفون، لكنهم غير قادرين على المعرفة. ويقولون نعم، يقولون لا، غير قادرين على المعرفة.

«أنا أذكر أنه في إحدى العمليات كانت عندنا عائلتان بحثتا عن شاب في الجيل نفسه. لكن عندنا كان مجهول واحد فقط. عائلة واحدة قالت إن لإبنها عينين زرقاوين والعائلة الثانية قالت إن له عينين بنيتين. كان من الواضح أن الشاب الذي ليس هنا موجود في «أبو كبير»، عندها دخلت إلى غرفة العمليات وكل ما استطعت رؤيته عبر الضمادات هو عينيه. زرقاوات جدًا. ولكن بعد ايام توفي هو أيضًا. عيناه الزرقاوان رافقتاني لأسابيع.

«وهذا يؤثر على علاقتي مع أبناء عائلتي أيضًا. كانت هناك فترة أراد فيها الأولاد أن

يرسموا وشمًا وقلت لا. لكن في أحد الأيام، بعد واحدة من العمليات الصعبة، جئتُ إلى البيت وقلت لهم إفعلوا، دُقوا وشمًا. ومن يومها محفور عندي لكل ولد علامته الخاصة. حفرتها عندي، في حالة وصلوا إلى هنا، فإنني سأعرفهم على الفور.

«العملية في خط ٢٠ كانت الأصعب. في هذه المرة كان هناك الكثير من الحزن الذي انبثق خارجًا. كانت هناك أم أريْناها أساور إبنتها، فاستلقت على الأرض وبدأت بالصراخ ولم تهدأ. والأب والأخوات صرخوا أيضًا. ولم يكن باستطاعة الجدة الخرساء أن تتكلم ومزقت قلوبنا. وعندما انتهى هذا، قررت عدم التنازل عن دوريتي في غرفة الولادة. ذهبتُ إلى البيت للاستحمام، وقفت في الحمام ربما لساعة وعدتُ إلى غرفة التوليد لأشعر بالجانب الآخر. بالحياة. وشعرت بأنني رويدًا رويدًا أعود لأكون سويةً مرةً اخرى. لأن احتضان طفل وُلد للتو هو أكثر ما يبعث على الهدوء في العالم. وفي يوم «خط ٢٠» حملت أطفالاً في يديّ ما استطعتُ. أمسكتهم، وضممتهم بشدة.»

٣- يوسي عميئيل، عامل

عيدو، في الـ ١١ من عمره، إبن يوسي عميئيل، هو الذي اختار رنة الهاتف الخلوي لأبيه. «طريقنا ليست سهلة» (مطلع أغنية بالعبرية راجت جدًا في وقت العمليات- المحرر)، لأن طريقنا الآن ليست سهلة، أوضح. وفي كل مرة تقع في المنطقة عملية، يعزف خلوي يوسي عميئيل النغمات الالكترونية التي عرضتها شركة «بليفون» على زبائنها: طريقنا ليست سهلة.

وُلد عميئيل في حي «الكطامونيم» قبل ٣٥ سنة. كان والده المعالج بالمساج في بيتار القدس وحتى اليوم ما زال «بيتارياً» ملتهباً وليكودياً ملتهباً، يعيش في شقة من تسعين مترًا، في «معليه أدوميم» مع زوجته المقعدة أيلانيت ومع إبنهما الوحيد، عيدان، الذي يرفض الآن الذهاب إلى المجمع التجاري وليس مستعدًا بأي شكل من الأشكال للصعود من «معليه أدوميم» إلى القدس، لأن الناس يتفجرون في القدس.

منذ ١٤ سنة وعميئيل يعمل في غرفة الاستقبال في هداسا عين كارم. وعندما يرن هاتفه

النقال «طريقنا ليست سهلة»، يعرف عميئيل ما عليه فعله بالضبط : أن يفرغ غرفة الاستقبال، أن يضع الحمالات في طابور في الخارج، وأن ينتظر الجرحى الأوائل. وبعد أن يصنف بروفسور ريبكيند الضحايا تصنيفًا أوليًا يأخذهم عميئيل إلى داخل وحدة الصدمات. بعد ذلك إلى غرفة العمليات، وأحيانًا إلى غرفة الأموات.

وجهه مدور، عيناه حسنتان، وهو دائم الابتسام. يخرج من بيته في الخامسة والنصف صباحًا ويسافر في باصين لكي يصل بعد ساعة ونصف إلى دورية الصباح. يخرج من هداسا بعد الظهر بباصين ليصل بعد ساعة ونصف إلى بيته ثانية. ويأكل «الأوملِت» وجبنة «الكوتج» وجبنة الـ (٥٪) التي يحبها، وسلطة الخضار التي يحبها، والخبز المحمص مع الزبدة. وخلال كل سفرة تتصل به زوجته من خمس إلى ست مرات لتسأل عن مكان تواجده الآن. وإذا حصل شيء. وهو يشعر ايضًا بما يشبه الوعكة طيلة السفرة. ينظر من حوله لأنه لا يمكنك أن تعرف اليوم، وقد حصل في السابق مرتين أن عملية وقعت بالضبط في المكان الذي مر فيه «خط ٢٩» إلى جانبه. نزل وساعد في علاج المصابين وبعدها عاد إلى الباص. يكسب خمسة آلاف وخمسمئة شيكل صافية. أربعة آلاف ونصف كمعاش، والباقي عن أربعة سبوت يشتغلها كل شهر. ومن هذا المبلغ تذهب (١٦٠٠) شيكل لقرض السكن وتتبقى اقل من أربعة آلاف للحياة نفسها. لكن ممنوع التذمر. من ما زال حيًا ولديه مكان عمل ممنوع عليه أن يتذمر.

في الخميس الماضي صوت لشارون في البرايميرز (الانتخابات الداخلية). في يوم الانتخابات أيضًا سيصوت لـ«الليكود»، ولكن لو تسنت له فرصة لقاء رئيس الحكومة فإنه سيقول له إن الشعب متعب. ولا يمكن بعد الحياة مع الوضع الذي يدفنون فيه الناس، على اليمين وعلى اليسار. ومن ناحية الوضع الاقتصادي- الاجتماعي فيبدو وكأننا عدنا إلى السبعينيات. وإذا كان الأوفردرافت (الديْن) في البنك يصل إلى خمسة آلاف في السابق، فإنه اليوم عشرة آلاف. واليوم لا يخرجون تقريبًا. لأن الخروج إلى المجمع التجاري يكلف مئتي شيكل كحد أدنى، ولذلك يجلسون في البيت ويشاهدون «دودو طوباز» و«راك بيسرائيل» (برنامجا تلفزيون شهيران- المحرر). لكن ليس هناك فرح، لا رغبة لشيء. وأنت ترى أمورًا سيئة أكثر وأكثر بين الأزواج. طلاق أكثر، عنف أكثر في العائلة. وسنة أخرى كهذه، يا رب، ولا أحد

يعرف إلى أين سنصل.

وأكثر ما يثير جنوني، يقول يوسي عميئيل، هو جملة السياسيين «يجب أن نستمر في العيش»، ماذا يعني أن نستمر في العيش؟ يعني أن تقوم في الصباح وألا تعرف ما إذا كنتَ ذاهبًا إلى الحرب أو إلى ساحة الوغى. أن تقوم في الصباح وألا تعرف ما إذا كان إبنك سيتفجر اليوم. لذلك، وعلى الرغم من كوني رجل يمين، يقول عميئيل، إلا أنني غاضب على شارون لأنه لا يعرض خطة سياسية. وأنا أقول لشارون إن عليه أن يقوم وأن يقول إنه سيتحدث مع عرفات. لأنه من غير الممكن الحياة على الأمن فقط والحصول على إرهاب طيلة الوقت، يجب طرح آفاق أيضًا. وكونهم يغلقون على عرفات في «المقاطعة»، لا يوقف العمليات. ونحن كبرنا في الدولة على الحروب ونحن نعيش مع الحروب، ولكن كفى الآن. هذا الشعب يبحث الآن عن الهدوء.

وفي كل الأحوال، نحن لا نذكر من (١٥) سنة كيف تبدو البلدة القديمة (القدس)، يقول يوسي عميئيل. يمكن إخلاء المستوطنات في «غوش قطيف»، ويمكن إخلاء المستوطنات الصغيرة أيضًا. ويجب الحفاظ على «أفرات» و«أرئيل» و«معليه أدوميم»، فهذه أماكن لعشرات الآلاف. ولكن إذا قالوا في النهاية إنهم سيخلونه أيضًا، وإذا طلبوا منه الخروج من التسعين مترًا خاصته في «معليه أدوميم»، فعندها سيخرج. إذا كان هذا ما سيمنع الباصات من التفجر أكثر، فسيخرج.

ولكن إذا كنتَ تسألني، يقول لي يوسي عميئيل ونحن جالسون فوق بقايا وجبة الفطور في غرفة الطاقم في هداسا، إذا كنت تسألني فإن الأصعب كان في الأسبوع الماضي، في «خط ٢٠». لأنه كانت هذه الفتاة، إبنة السبعة عشر عاماً، التي أخذها إلى غرفة العمليات ولم يعرف ما حلّ بها. لكن في نهاية الحدث توجه إلى بروفسور ريبكيند وسأله، وريبكيند قال إنهم فقدوها. ولم يبكِ لأنه ممنوع البكاء في المستشفى، يجب أن تنقطع، يجب أن تساعد ما استطعت وبسرعة. لكنه أخذ البكاء إلى داخله وذهب معه جانبًا وفكر فيما ستمر به عائلة هذه الفتاة. وماذا لو كانت واحدة من عائلته، ماذا لو كان هذا إبنه. ماذا تملك العائلة أكثر من الإبن. وعندما تجول بعد ذلك في غرفة الاستقبال بمعية بروفسور ريبكيند سأله ماذا

ستكون النهاية آفي. إلى متى. وبروفيسور ريبكيند قال له: كن قويًا يوسي، لا تنكسر. هذه مهنتنا، هذه بلادنا، وهذا ما اخترنا أن نفعله في حياتنا.

ولكن عندما تسافر إلى البيت في باصين، يقول يوسي عميئيل ويسكب لي شايًا مع «لويزا»، في كوب من «الكلكر» الأبيض. لأنه ليس لكل واحد سيارته الخاصة. وعندما تصل إلى البيت في النهاية ترى الصور في الأخبار. ترى الباص في «خط ٢٠» محطمًا. وعندها تبدأ كل الصور من الصباح بالعودة إلى رأسك. كيف كان المصابون عندما وصلوا، والصراخ، والضغط. وكيف بدت غرفة الاستقبال بعد الانتهاء من إخلاء كل الجرحى. مثل المسلخ بدت الغرفة. وهذه الفتاة إبنة السبعة عشر. عندها تذرف الدموع. وتأتي الزوجة وتسألك عما حدث. وتشرح لها أنك لست كالآخرين. أنت، عندما ترى الباص مفككًا في التلفزيون، أنت تعرف عمّا يدور الحديث. وتقوم الزوجة بإبعاد الابن لكي لا يرى وتمنحه عبطة جيدة وكوبًا جيدًا من الشاي. الزوجة تقول إنه يجب أن نعيش، لكن يبقى عندك ما يشبه الألم في بطنك: إلى الجحيم، يكفي. لأن هذا هو الوضع وهو قائم، لكن من المستحيل العيش مع هكذا وضع. لا يمكن الاستمرار في الحياة هكذا.

٤- نعما حفروني، ممرضة

مساء عيد «الحانوكاه» ومساء السبت ومطر. يُفترض أن يصل الجرحى المحمولون في الطائرة من مومباسا، بعد قليل، لكن الانشغال حاليًا في غرفة الاستقبال هو عادي: أطفال مع نشاف بسبب الفيروس الأخير، مسنات مع إلتهاب في الرئتين، صبي فلسطيني يدعي أن جنديًا ضربه. بعض الجرحى من حوادث طرق. لكن الطاقم الذي أستدعي من البيت على عجل لاستقبال الطائرات يشتكي من أن هذا السبت الثالث المنحوس. سبت واحد للخليل، سبت ثانٍ لـ«خط ٢٠»، سبت ثالث لكينيا. وهذا لا ينتهي. كأن الأمر يشبه اللعبة، تقول نعما حفروني: هم يفجرون ونحن نعالج. هم يفككون البشر ونحن نحاول أن نركّبهم من جديد.

منذ أن كانت في الرابعة من عمرها عرفت أنها ستكون ممرضة. في سن الخامسة تنكرت لممرضة. وعندما درست العلاج كان واضحًا لها أنها ستأتي للعمل في «إستقبال» هداسا عين

كارم. وبالضبط، اليوم قبل سبع سنوات، بدأت بالعمل هنا. بعد ثلاثة أشهر من ذلك كانت العملية الأولى لها، «خط ١٨»، وبعد أسبوع كانت العملية الثانية.

أكثر ما أذهلني كان الشعور بالمثالية، تقول حفروني. هذه ليست روح دعابة سوداء، هذا ما يشبه الوضع الغريب من الابتسامات والادرنالين والضحك. وهذا لا يحدث بعد نهاية الحدث فقط، هذا يحدث في غرفة الاستقبال نفسها. عندما نصور بأشعة الرنتغن وكل الطاقم يبتعد إلى الزاوية، والجميع موجود بما يشبه النشوة. حتى أننا نروي النكات. وكأننا موجودون في عدم تطابق كلي مع ما يحدث. كأننا لا نستوعب. وبالذات مَن مِن المفروض أن يستوعبوا أكثر من غيرهم، هم الذين لا يستوعبون أبدًا. على العكس. وخلال العمل هناك شعور يشبه التعالي.

في العملية الثانية، في آذار ١٩٩٦، تكونت عندها غصة في الحلق. تنقلت وقامت بعملها لكنها شعرت طيلة الوقت بأنها على وشك البكاء. في المحصلة كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، ووجدت نفسها في مناظر لا يجب أن تراها فتاة في الثالثة والعشرين. وعندما طلبوا منها أن تقوم بفحص «أيه كيه غيه» لميت، وكان عليها أن تصل الوصلات الكهربائية لرجليه المتفحمتين، فهمت عندها أنها موجودة في جهنم.

ترعرعت في «كدوميم» على مبدأ أرض إسرائيل الكاملة، العذراء. لكنها غير متأكدة اليوم. اليوم تعيش في شك كبير. وأحيانًا تغضب على متخذي القرارات لأنهم لا يقومون بما يكفي. وبعد العمليات الصعبة تأمل أن يخرجوا إلى حملة أخيرًا. فلدينا سلاح جو يمكن أن يمحو قرية في ثانية. لكن من جهة أخرى لن نمس بالأبرياء. ومن جهة ثالثة ايدينا مكبلة. وفي نهاية الأمر نحن نساق إلى الذبح كالشياه. وأحيانًا تقول لأصدقائها، أنظروا جيدًا، هذه محرقة. هذا ما يشبه المحرقة الصغيرة لأنه على الرغم من أن لدينا دولة قوية وجيشاً قوياً، إلا أننا في النهاية نسير إلى الموت بأيدٍ مكبّلة.

لا، هي لا تملك الحلول. وهي لا تحب (أفيغدور) ليبرمان و(أيفي) أيتام، لأنها لا تحب التطرف. وهي غاضبة على شارون لأنه وعد بالكثير ولم ينفذ. لكنها لا تحب الانغلاق المتكبر عند اليسار. حتى في النقاشات داخل الطاقم فإنها ترى ذلك: لليسار شكوك أقل مما لليمين.

اليسار يتصرف وكأنه يملك الاحتكار على الحقيقة.

هي نفسها لم تعد تثق بشيء. لو يرسلوا لها وعداً من السماء، بأن هذا الجنون سيتوقف لو تنازلت عن بيتها في «كدوميم»، فإنها ستتنازل عن بيتها في «كدوميم»، على الرغم من أنه البيت، على الرغم من أن ذلك سيكون أشبه باقتطاع جزء منها. لكن حالياً، ليس هناك وعد كهذا أصلا. وربما كانوا يريدون كل شيء في النهاية. ربما أنهم يغشوننا، لكننا في مأزق لا حل له.

حدقتاها كبيرتان ودافئتان. عيناها مشعتان. وحتى عندما تدخل السبت فإنها تستمر في إدارة غرفة الاستقبال بصمت مضيء. تعالج فلسطينيًا قد يكون ضُرب، وبشاب طُعن في شجار. وأكثر ما تخشاه هو تخدر المشاعر، تصلبها. وهي تذكر أنه بعد العمليات الكبيرة في الـ ٩٦، لم يأت أحد إلى غرفة الاستقبال، طيلة أيام كاملة. وكأن الناس عرفوا حجم الأمور. والدولة كلها، ساعتها، كانت مصدومة، بهدوء. ولكن اليوم، قبل أن ينتهي حدث كثير المصابين، تجد من يأتي بسبب أوجاع في رأسه. وفي «غلغلاتس» (محطة أغان خفيفة تابعة للجيش الاسرائيلي- المحرر) يعودون خلال ساعات إلى الأغاني الراقصة وفي المساء هناك يتسبان (مقدم برنامج هزلي يومي- المحرر). وكل ما ملأ غرفة الاستقبال هذه في الصباح وكل ما أريق على هذه البزة الخضراء يتحول إلى تغطية إخبارية أخرى. من جهة واحدة، هذا صحيح، لا مفر آخر. لكن من جهة أخرى هذا مشوه جدًا.

أصعب لحظة مرت بها كانت في حزيران، بعد العملية في التلة الفرنسية. كانت هناك فتاة لطيفة، تدرس في «أولباناه» (مدارس دينية للفتيات- المحرر)، مع شعر مرتب وماكياج خفيف على الوجه. وقد أثّرت عليّ في غرفة الاستقبال، تقول نعما حفروني. ربما ذكّرتني بنفسي في هذا الجيل. وعندما قرر الأطباء موتها وطلبوا إخلاءها بسرعة، لأن هناك حاجة لمكانها لعلاج آخر ما زال لديه الأمل، فجأةً، اغضبني هذا جدًا. أغضبني انها كانت حتى قبل دقائق قليلة على قيد الحياة، وهي الآن غير مهمة. لقد أحسست بالمهانة لأجلها.

«رافقتني خلال أسابيع بعد ذلك. وعندما كنت أغلق عينيّ كنتُ أراها. وعندما حاولت النوم كنتُ أراها. وعندما ذهبت إلى البركة للفضفضة، سبحت وبكيتُ من أجلها. كأن لا

دواء بعد. كأن كل القوة التي كانت لديّ للعطاء تركتني. لأنني ارتبطت بهذه الفتاة من الـ «أولباناه»، وبصورة معينة، أعتقد أنني أحببتها.

«بعدها تحصنتُ. وتعلمت بشكل خاص عدم النظر إلى الوجوه. وعندما يصل الآن جنود في الثامنة عشرة من أعمارهم، مع جسد صغير وقوي أقول، نعما، لا تنظري إلى وجوههم. لأنك لو نظرتِ، فإنك سترتبطين. وعندها أقول لنفسي، ناعما، كوني روبوت. يغيرون، هذا جيد. يفتحون القفص الصدري، أو كي. لكن إذا رأيتِ الوجوه، فإنه في كل مرة تغلقين فيها عينيكِ سيطفون أمامك. كل وجه هو إنسان. هو شخص ما مع إسم».

منذ سنتين وشهرين فقدت الهدوء. الجسم «يقفز» كل الوقت، متهيئ. وإذا كانت في غرفة اللياقة، فإنها تستحم على الفور، فلو وقعت عملية فلن تذهب متعرّقة. ولا راحة. لا لحظة من الراحة المطلقة. العين على النقال طيلة الوقت.

هي متفائلة جدًا في تكوينتها. لا تؤمن بأن هذا سيكسرنا. لكن لا يكاد يمضي يوم، من دون أن تسأل نفسها كم من الباصات وكم من «الشوارع المبلطة» سيكون إلى أن يصبح الوضع جيدًا. وهي تفكر في أغنية بوليكير من القادم في الدور، ومن في الدور القادم. وتخشى من هذا الشعور، وكأن ستارًا حل علينا ولا نفهم ما يحدث. وأحيانا هي أيضًا تقول لنفسها: إنه لا يمكن أن يكون ما يحدث صحيحًا. وتنتظر أن يهزها أحدهم وأن يخبرها بأن هذا كان مجرد كابوس. لكن لا أحد يهزّها. لا أحد يوقف كل هذا.

(٣)

ما يسواه الإبن

«الليكود» ٢٠٠٢ هو أكبر قبيلة من الاسرائيليين المهمّشين، وعمري شارون هو قلب القبيلة النابض. الرحلة مع أمير القبيلة، المفسر المعتمد لوالده، تبدأ بشعور بالنصر وتنتهي بخيبة أمل.

الخامسة مساءً يوم السبت، والشفروليت سافانا تخرج من تل أبيب نحو الشمال. يجب الاسراع: (١٥) دقيقة قبل فتح الصناديق في «غاني هتعروخاه» (حدائق المعارض)، وفي السادسة يجب أن نكون في «تعناخيم»، في الثامنة في يوكنعام، في العاشرة عند موشيه دداش في القدس. وهكذا ينتج أنه يجب قطع الاختناقات المرورية عند مفرق الخضيرة، السفر بسرعة عبر وادي عارة، و«قص» شارع «هَسَرْغيل» (المسطرة). وحاليًا، يجب مفاجأة أعضاء المركز الذين يقررون بواسطة النقال، والذين أشير إلى أسمائهم في القائمة، مسبقًا، بلون بارز. ويجب تنسيق العديد من التنسيقات «الناعمة» مع المرشحين الذين تطلب «حفات هشيكميم» (مقر سكن أرئيل شارون- المحرر) رضاهم. أسبوع جيد، حضرة الوزيرة. مساء الخير، سيدي رئيس البلدية. ويجب إنهاء شؤون أخيرة مع عدد من رؤساء المجموعات.

البوسترات جاهزة، أخي؟ في الثامنة بالضبط، أخي. أنت لص، أيها الشيء. لقد اثبتّ أنك رجل ولا كل الرجال.

في مركز المقعد الخلفي يجلس رجل في الـ (٣٨)، مع تركيبة جسد خاصة به ونادرة. «حيوان مكتظ» يسمي نفسه. ١٢٠ كغم في الأيام الجيدة، بدون الحذاء والمسدس. لكنه يحمل مسدسه هذا المساء، كعادته. وهو بدون حذاء، كعادته أيضاً. يلبس الصندل، أو ما يشبهه، ومع رأسه الحليق ونظارته الطبية، يبدو عمري شارون مثل ثور صغير وطيب القلب خرج لتوّه من صفحات كتاب مصور للأطفال.

لكنه عندما يُمسك بجهاز «البيبر» بيده اليسرى والنقال باليمنى، يذكر هذا الثور الصغير قليلا ببنحاس سبير مع دفتره الأسود. أو بشراغا نيتسر. فالذي يقوم به عمري شارون، في السنتين الأخيرتين، من أجل رئيس الحكومة أرئيل شارون، هو بالضبط ما قام به شراغا نيتسر من أجل رئيس الحكومة بن غوريون: إدارة الجبهة الداخلية السياسية. التشمير عن الساعدين ودفع اليدين إلى الوحل الذي سحب منه أبناء النخبة القدامى، أيديهم. ومحاولة السيطرة على الابريق الذي يغلي والذي إسمه «الليكود»، محاولة ترويض الفرس المتوحشة في الحزب الحاكم في إسرائيل. الحزب نفسه الذي تحوله عائلة شارون إلى «مباي» سنوات الألفين.

بيت الشعب الحزين في موشاف «نير يافيه» غُطي بلافتة عملاقة: الشعب يريد شارون، نقطة حمراء. وفيما خلع عمري بلوزته ووضع القميص القطني على كتلته اللحمية، وأبدى صعوبة في إدخال أطراف القميص تحت بنطاله، كان العشرات ينتظرون على كراسي البلاستيك الخضراء: ممثلو الموشافات، ممثلو منطقة «الغلبوّاع»، ضيوف من العفولة والشمال. هذه هي المرة الأولى منذ إقامته، يُعقد إجتماع لـ «الليكود» في موشاف «نير يافيه»، هنا أيضاً، مثل غالبية مناطق الضواحي في إسرائيل، التنازل عن اليسار و«العمل» هو مطلق. وهذا التنازل يصل إلى درجات لم يصل إليها منذ الانقلاب في العام ١٩٧٧. وهذا التنازل يطرح الاحتمال بألا تكون إنتخابات ٢٠٠٣ إنتخابات عادية كما تنبأ الكثيرون لها قبل أشهر قليلة. هذا التنازل يطرح إمكانية أن تكون انتخابات ٢٠٠٣ إنتخابات تاريخية: يمكن أن تحول هذه الانتخابات «الليكود» إلى حزب كبير وحيد تتجمع من حوله مجموعة أحزاب

متوسطة- كبيرة، متوسطة- صغيرة ومجرد أحزاب صغيرة. بالضبط مثلما كان في الخمسينيات والستينيات، لكن بالعكس. «الليكود» بدلا من «مباي»، «العمل» بدلا من «حيروت»، «الليكود» بدور «المعراخ»، «العمل» بدور «غاحال».

أيلي أفلالو هو أول المتحدثين: رجل الأعمال من العفولة، الذي شغل منصب رئيس مجلس «تيفن» يلقي بحمم أقواله من تحت شارب كثيف وشعر مصبوغ بالأسود الفاحم. وفي وقوفه أمام الجمهور بالجاكيت الأسود المرقط بالأبيض، يقول المرشح رقم (١١٨) («حاي» يقول، تذكروا «حاي»)- (وحاي هي الحرف «ح» والحرف «ي» وهما معًا رمز مقدس عند اليهود- المحرر)، أيلي أفلالو، إنه قبل أربع سنوات فقط كان «الليكود» حزبًا محطمًا مع (١٩) مقعدًا وديون، بينما الآن، باستطاعته أن يضمن حتى المقعد الـ(٤٥). حتى المقعد الـ(٥٠). وكل هذا بفضل من؟ كل هذا بفضل رئيس حكومتنا الذي عمل على انتخاب رئيس للدولة من «الليكود» وحوّل عرفات من رجل سلام رقم واحد إلى إرهابي غير ذي صلة. ومن ساعده في ذلك؟ عمري ساعده في ذلك. لأن عمري هو ملح الأرض وهو شاب بسيط ينتعل الصندل وبلوزة «التريكو» لكنه صديق حقيقي. واحد منّا. وعندما تكون حاجة لحل مشكلة فإن عمري يحلها. وإذا واجه أحدنا مشكلة، لا سمح الله، فإن عمري يساعد. والا يُثار إنطباعكم من تواضعه، ومن أنه لا يستطيع أن يقول كم يسوى. هو ماتور توربو، أقول لكم. بفضله احتللنا مكانًا بعد الآخر في البلاد. بفضله نحن الآن رقم واحد.

ولأن الاعلام المؤثر في إسرائيل هو إعلام «رمات أفيف» وحتى «فلورنتين»، لا يوجد في بيت الشعب في «نير يافيه» ولا حتى مراسل ميداني واحد ليقتبس من أقوال عمري شارون عناوين الصفحة الأولى التي تحويها. ولكن عندما يقف المرشح المعروف مكانه ويتغلب على الاحراج الأولي ويكمل القصة الظريفة عن سيارة «الويلّز» الخاصة بالجدة فيرا في إحدى بيارات «كفار نهلال»، فإنه يقول لجمهور الضواحي أمورًا مع جوهر: عندما يقول رئيس الحكومة إنه سيقيم دولة فلسطينية، من الجدير الانتباه إلى ما يقوله بالضبط. فقط عندما تتهيأ الظروف، فقط عندما يسود الهدوء. هذا ليس موضوعًا للتنفيذ غدًا، هذه مقولة بعيدة الأمد. ويجب أن نفهم أننا لا نعيش في فراغ، يوجد واقع دولي.

ولكن عندما تتحدث بلطف، فإنه بامكانك أن تضرب بقوة. واليوم نحن نجلس في داخل المناطق الفلسطينية، نحن نخرق اتفاقات دولية، ولا أحد يتفوه بكلمة. الولايات المتحدة معنا. إذًا ما المانع من التحدث عن دولة فلسطينية، دولة فلسطينية، فحاليًا لا توجد حتى مناطق A. ولا يوجد «بيت الشرق»، ولا ممثليات فلسطينية داخل القدس، وفي مدنهم أيضًا يخشون من التجول مع سلاح. ومن الواضح أننا نريد جميعًا السلام، من لا يريد السلام. لكن مقولة دولة فلسطينية هي مقولة بعيدة جدًا.

هناك عنوان إئتلافي آخر يقوله شارون الصغير لـ«الليكوديين» الجدد من قطاع «التعناخيم»: في نية رئيس الحكومة أن يحتل من أجل «الليكود» وزارة الداخلية، الزراعة والعمل والرفاه. دمج هذه الوزارات سويةً مع وزارة التربية والتعليم التي يجب أن تبقى بأيدي «الليكود»، سيمكّن من إدارة سياسة داخلية وإجتماعية صحيحة، ذات أهداف بعيدة الأمد. لذلك من المهم أن نعمل سوية، بيد واحدة، بعد البرايميرز فورًا، يقول شارون. على «الليكود» أن يكون حركة مركزية، بها المتسع لأصحاب الآراء الحمائمية وأصحاب الاراء الصقورية. ومن المهم أن نسمع بعضنا البعض، وعدم التشاجر. الحياة أصلا معقدة، وفي كل مكان يمكن التنازل فيه عن التناحرات، من المفضل أن نفعل ذلك. وهدفنا هو دفع الموضوع. أن نعمل من أجل الدولة، من أجل «الليكود»، ومن أجل أنفسنا أيضًا.

هذه هي المعادلة، مع بعض الزيادة والنقصان: الوطنية والمصلحة الشخصية. القومية الناعمة، العملية، والتحرك الاجتماعي. فما يقوم به عمري شارون في السنتين الأخيرتين هو أن يكون ما يشبه جمعية لحقوق المواطن من رجل واحد. من رجل واحد قوي. وكما تهتم جمعية حقوق المواطن تلك، أول ما تهتم، بحقوق الفلسطينيين ومعدومي المسكن، فإن جمعية حقوق المواطن الخاصة بشارون الابن تهتم أول ما تهتم بحقوق «الليكوديين»، فـ«الليكود» بصيغة ٢٠٠٢ هو ليس حزبًا فكريًا، بل قبيلة. تحالف المصالح المشتركة والمشاعر المشتركة للمنبوذين الاسرائيليين. وعمري شارون يتهدى اليوم كونه أمير قبيلة، عمري شارون هو القلب النابض للقبيلة. مفترق طرق الأعصاب المركزي.

عندما نودع الموجودين، نعود إلى «الفان» ونسافر بسرعة إلى يوكنعام. شعوره جيد.

الجمهور أحبه وهو تكلم جيدًا وهو مستعد لأن يوضح لي حقائق الحياة. هناك مبدءان أساسيان يسيّرانه: الأول أن يساعد كل الناس، وأولهم من هم معنا. الثاني، التذكر أن المصلحة ليست مصلحة أمه. لأن من قاد ناقلة جنود حربية يمكن ربما تقوية الجوانب له، ولكن لا يمكن إعطاءه F-١٦. ويجب أن يحافظ على الأمور في حيز القانون. أن يحرر البيرقراطية من دون الوصول إلى مجال مراقب الدولة.

عدا عن ذلك، فإنه لديه بشكل شخصي قاعدتين أيديولوجيتين: عدم التشاجر إذا كان بالامكان منع ذلك؛ عدم الكذب ما دمنا غير مجبرين على ذلك. لكن يجب التذكر أننا لسنا في شينكين. هنا يتعاملون مع مواد صلبة. وإن لم تكن قويًا فلن يحترموك. إذا لم تنتصر فإنهم سيدوسونك. هذه بلاد لا تعرفها مطلقًا، يوبخني شارون. هذه بلاد لم يبدأ شمال تل أبيب بفهمها.

قبل اربع سنوات بالضبط دخل إلى «الموضوع»، كان هذا بعد أن هُزموا في برايميرز ١٩٩٩. كان لديهم دائمًا معسكر مبلور ضمن لهم الأماكن الأولى وفجأة تراجعوا إلى المكان السابع. بالنسبة لأرئيل كان هذا صعبًا للغاية، مهينًا. ومثلما يحدث في أفلام الغرب الأميركي، عندما يجلس المسدساتي الأكبر في الغرب في حانة، وفجأة يظهر رجل شاب ويقضي عليه. عندها جلسوا سويةً مع أوري شاني وبدأوا بالعمل، أخذوا الموضوع لأيديهم. ومن ساعتها قادوا حتى الآن أربع حملات إنتخابية ناجحة. الحملة في الثامن والعشرين من كانون الثاني ستكون الخامسة.

ماذا تعلم في هذه السنوات؟ أن هذه بلاد أخرى. أن الناس هنا يصارعون من دون أن يملكوا الفرصة. ليس هناك من يتوجهون إليه، ليس هناك من يهتم بهم. هذا واحد من الأسباب التي تجعلهم يحبون رئيس الحكومة بهذا الشكل. يشعرون بأنه الوحيد الذي يمكن أن يخرجهم من هذا الخراء. وفي كل مكان يقترب منه الناس ويقولون له: قل لأبيك إنه هو فقط. لا أحد آخر. هو أبونا.

في كل ساعة- ساعتين الوالد على الخط. قلق عليك؟ قلق. ما العمل، يضحك عمري، منذ أن تيتّمتُ يعتقد أن عليه أن يكون الأب والأم معًا. لكن المحادثات بينهما قصيرة وناجعة:

مثل تمريرات كروية دقيقة من لاعبين متمرسين يعرفان كيف يجدان الواحد الآخر من دون الحاجة لرؤية الواحد الآخر. نعم، من المفضل رفع تلفون لأعضاء الكنيست، لتشجيعهم. وأيضًا للمنضمين الجدد، هذا مهم. وهل وصلوك مع المرأة إياها من «بئر يعقوب» التي ارادت أن تعطيك كتاب صلوات؟ لا، ليست عضو مركز ولا شيء. لكنها امرأة من «بئر يعقوب» تهتم بك حقًا. تحدث معها.

الاجتماع في يوكنعام مختلف جدًا عن الاجتماع الحميمي في الموشاف: بعد أن تناولوا الطعام، جلس أعضاء المركز من كل أنحاء الشمال تحت الثريات اللامعة في قاعات «هنسي» (الرئيس) من أجل الاستماع لقائمة المرشحين التي في معسكر شارون: تسيبي ليفني، يعقوب إدري، مجلي وهبي، أيلي أفلالو، عمري. ولكن قبل أن يمنح عريف الأمسية حق الكلام للمرشحين، فإنه يحذرهم: بعد أن تُنتخبوا، سنكون نحن أعضاء المركز في إتصال معكم وسنلح عليكم وويل لكم إذا لم تسمعوا لنا. ولا يُعقل ألا يقدموا في اجتماعات المركز القهوة والكعك للأعضاء. نحن أصحاب البيت، نستحق هذه اللفتة.

كل هذا السياق صعب على شارون الصغير. في مروره بين الطاولات المدورة التي ترتفع فوقها بالونات زرقاء وبيضاء، يتعانق ويسلّم ويقبل، لكن عندما يصعد إلى المنصة لا يبدو في أفضل أحواله: ثقيل الكلام وغير ذكي. أنا لا أتقن التحدث عن نفسي، يقول بصدق، انا أفضل في الفعل. في المساعدة، في مد يد العون، في أن أكون هناك من أجل حل المشاكل. أنا أعرفكم وأنتم تعرفونني، لكنني لا أعرف التحدث عما فعلته. أعتقد أنني في المستقبل سأستطيع توضيح ذلك بصورة أفضل. حتى الآن عملت مع رئيس الحكومة من المقعد الخلفي؛ الآن أنا أطلب منكم مساعدتي على التقدم إلى المقعد الأمامي. الأخير في القائمة هو أنا، رقم ٢٥٩.

يجب الضغط. الآن إلى القدس. ولكن ليس قبل أن يعرفني شارون على حداد من صفد، الذي لا يغفر لعمري أنه اضطره لأن يصرخ من أجل دولة فلسطينية، في الوقت الذي كان فيه عمري واقفًا على الشرفة في مركز «الليكود» الذي لا يُنتسى، وأشرف على إسقاط نتنياهو. حداد هو «بُندقيّ» مخلص، يوضح شارون. وهو مخلص لأنه يعرف أنني هناك من أجله، تمامًا

مثلما هو هناك من أجلي. هكذا تسير الأمور.

الاخلاص هو اسم اللعبة. فشراغا نيتسر من «مباي» الجديدة لا يملك تلك الرافعات من القوة التي كان يملكها شراغا نيتسر من «مباي» القديمة: شركة العاملين، صندوق المرضى، السيطرة على مصادر رزق الكثيرين. ولذلك فإن فن السيطرة هنا هو أكثر ليونة. هذه لعبة مركبة جدًا ومنهكة جدًا، تعتمد على الاغراء والتغزل وبعض التهديدات، هنا وهناك. هذا يعني أن تكون في المتناول طيلة الوقت، لنداءات الـ«بيبر» من مختلف الناس وأن تكون مصغيًا لمئات الحوادث الانسانية وأن تبني رويدًا رويدًا شبكة كثيفة من الاخلاصات. ما يشبه شبكة أخوة. ليس مبنى شرق أوروبي صلبًا من القوة، يُدار عن طريق أوامر وإملاءات، وإنما عن طريق مبنى قوة شرق أوسطي، غير ثابت يُدار بالصراخ، بالضحك وبالنكات. وفي محاولة مستمرة للوقوف على خط التماس: من بالنسبة له الكلمة تعني كلمة، من عنده الكلمة هي ماء. من هو رجل الرجال ومن هي الكلبة البرجوازية. من لي، ومن ليس لي.

في الوقت الذي تشق فيه حزمات النور المنبعثة من الشيفروليت، الطريق جنوبًا، في العتمة الموحشة في طريق الغور، تبث القناة ٢ برنامج «عوفداه»: سر قوة شارون. من الاتصالات التي تصل فورًا إلى الغور، يتضح أن شريط فيديو صُور في الساحة نفسها، بُثّ في البرنامج. ما يعني: شخص من الداخل تجاوز الخطوط. باع. الجاسوس. للمرة الأولى خلال هذا المساء يفقد وجه عمري شارون مسحته الطيبة. لا يتحول إلى كوالا قوية، إلى أسد من بلاد الواق واق، وإنما إلى ثور هائج. الاتصال الذي يصل بعد قليل من «حفات هشكميم» غاضب أيضًا. ليس الحديث عن الضرر الذي سببه البرنامج فقط، بل عن مجرد الخيانة. توقيت الخيانة. هوية منفذها.

الجمهور الذي ينتظر على مرجة الفيللا من السبعينيات، التابعة لموشيه دداش، في «غفعات همبتير» في القدس، قليل جدًا: في بداية المساء كان هنا المئات، لكن الغالبية تفرقت الآن. والذين تبقوا -مقاولو تراب، مقاولو بناء، مقاولو أصوات- بقوْا ليفحصوا عن قرب من يكون هذا الحليف الجديد الذي سيسيرون معه بعد بضع ساعات إلى حلبة المحاربين الكبار في «غاني هتعروخاه»، أيهود أولمرت، الذي ما زال يتصرف على أنه وزير الخارجية القادم، يمسك

بالسيجار باليد اليسرى، ويضع يده اليمنى بابوية على كتف إبن الزعيم، ويذكر عطاءه الكبير لفرع القدس. ليس للقدس، بل لفرع القدس. لم تُقل كلمة واحدة عن دولة فلسطينية على المرجة الرطبة الخاصة بموشيه دداش. ولا كلمة عن الوضع الاقتصادي أو السياسة الاجتماعية. في مثل هذه الساعة المتأخرة، ينصب كل الاهتمام في تحسس البضاعة. في رؤية ما يسواه الإبن. من أية مواد مصنوع الجيل الجديد في عائلة شارون.

في الزاوية، تقف فتاة في السادسة والعشرين من عمرها، بمعطف جلد فاتح اللون. عنبال غبريئيلي إسمها. إبنة أخ ملك القمار ريئوبين غبريئيلي. وهو هنا أيضاً. حتى يوم غد، في مثل هذه الساعة، ستكون عنبال غبريئيلي عضوة كنيست. سيكون انتخابها ربما الحدث الأهم في هذه الانتخابات التمهيدية. الشهادة الأكثر فظاظة على الوضع الحالي للسياسة الاسرائيلية. ولكن في هذه المرحلة، لا تحظى عنبال بالاهتمام. الاهتمام موجه إلى الخيانة الجديدة التي أكتشِفت: الفقدان الفجائي لـ(٨٠) صوتًا حاسمة وُعد بها فلاديمير شكليار، المتنافس على الخانة الروسية.

هكذا، بدات الهواتف النقالة في الواحدة من بعد منتصف الليل، بالركض ثانية. شارون يجلس مع شكليار في كرسي الحديقة البعيد، ويوقظ أناسًا من نومهم في رحوفوت ونتانيا واشدود، من أجل محاولة كشط (١٠-٢٠) صوتًا هنا و(١٠-٢٠) صوتًا هناك، لصالح المرشح المعتدل فلاديمير. وإلا فإن غرونوبسكي سيُنتخب. وغرونوبسكي هو ليبرمان. ويتضح الآن أن لليبرمان مقر سري يعمل في داخل داخل «الليكود»، وأصلا، الأمور لا تبدو جيدة أبدًا. ليبرمان من جهة، وفايغلين من جهة، وشبح يسرائيل كاتس يحلق فوق كل شيء. والاجتماع أيضًا في قاعات «هنسي» في يوكنعام تفجر في النهاية إلى درجة العراك بالأيدي.

عمري هو رجل قيمي. حتى في صباح السبت المصيري هذا، قضّى ست ساعات في عمله التطوعي كمراقب صيد في سلطة الحدائق الوطنية. وكما يشهد أبوه عليه فإنه قادر على السفر مئتي كيلومتر من أجل رؤية نمو زهرة نادرة في الصحراء. قادر على النهوض في منتصف الليل وقلب الدنيا من أجل صديق. القوة لم تفسده ولم يبعث برأسه على الدوخان. هو

يفهم جيدًا أنه من المهم حمل مسدس لكن لا يقل أهمية عن ذلك الامتناع عن إستعماله. ذكاؤه بيولوجي، عضوي، راغب في الحياة. وهو يحتقر الكذب؛ والحروب غير الضرورية مكروهة عنده. وبطريقته، يسعى من أجل السلام الحقيقي. واحد من القلة في القيادة الحالية الذي يمكن القول عنه بكل ثقة إنه يطلب الخير حقًا. ولكن في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، قبل يوم البرايميرز في «الليكود»، السياسة الاسرائيلية الجديدة تلزم شارون الصغير أيضًا بالتشاور مع والد عنبال غبريئيلي ومع عم عنبال غبريئيلي ومع أصحاب مصالح تجارية كبيرة، الذين يحجون إلى مكان جلوسه في زاوية الحديقة.

هل حقًا سيدعمونه؟ هل سيكونون أوفياء للتحالف؟ في اتصال هاتفي لمديرة الحملة النشيطة، مازال، يقوم شارون بتقسيمة لميزان القوى- هذا سيدعم، هذا يتظاهر، هذا سيستثمر نصف نصف. وفي إتصال هاتفي آخر يردع ضغوطات تفوح منها رائحة فظيعة. ساساعد في كل حالة يقول. لكنكم تشترطون دعمكم بمساعدتي. لا شكرًا. إبحثوا عن شخص آخر. أنا لا أقوم بمثل هذه الأمور.

ولكن اليقظة لا تضايق شارون في لعب اللعبة حتى نهايتها والتمتع منها وإدارتها بجمالية. فكل شيء هو الحياة، يقول. الكل قطع من الحياة. وهو يحب فعلا هؤلاء الناس الدافئين من «غفعات همبتير» في القدس، الذين يحوون حقيقةً ما من الصعب أيجادها في تل أبيب. ولذلك، عندما يصعد إلى مطبخ موشيه دداش، فإنه يسمح للجوع الموصوف لديه بأن ينفجر خارجًا. وعلى صوت ضحك الحاضرين يلتهم قطعًا كاملة من فيليه البقر النيء، واحدةً بعد الأخرى. ويشتكي من أن من يزن (١٢٠) كغم، عليه أن يلتهم لئلا يفقد من وزنه. وعندما يقرر موشيه دداش أن يكرّمه وأن يصب له من قنينة «الغرابا» الخاصة به، والتي سعرها يصل إلى (٤٥٠٠) شيكل، يُفرغ كأس «الغرابا» في جوفه دفعةً واحدةً. وكأساً أخرى. وواحدة أخيرة. إلى أن يقول له القائم بأعمال رئيس البلدية، يغآل عمادي، إنه أيقظ من أجله المغني الشرقي الذي يحبه وأن المغني مستعد للغناء لعمري في الهاتف الأغنية المفضلة لديه، فإن شارون ينضم إلى الغناء معه. وفيما يمسك سماعة الهاتف بيده، يغني مع آفي سنفاني من أعماق قلبه. «امرأة الرجل»، يغني، «دائما إلى جانبك، ولكنها ليست لك».

بعد عشرين ساعة، كانت الضجة في «غانيه هتعروخاه» تصم الآذان. ومن نجح في التسلل بشتى الطرق إلى داخل المنطقة المغلقة جدًا في «طاولة ٢٦» يفهم بالضبط لماذا لم يُسمح للاعلام بالدخول إلى هنا: «الليكود» غير معني بأن يرى الجمهور كيف تعمل الأمعاء الغليظة للديمقراطية الداخلية. «الليكود» غير معني بأن يرى الجمهور وزير الأمن ووزير المالية في دولة إسرائيل متعرقين ومرتعبين، وهما يحنيان رأسيهما أمام أعضاء مركز غريبين ومختلفين. وأن يرى الجمهور روني بار أون يتجول كما كان يفعل. وموشيه فايغلين يسير هنا كما يسير الآن. وبنينا روزنبلوم تجلس على كرسي عال عند المدخل خلال ساعات وترتكن إلى الأمام مع فتحة عميقة جدًا في بلوزتها، على كل واحد وواحد من الأعضاء الداخلين، قبل أن تطبع على خديه قبلتين رطبتين. ونائبة الوزير نوعمي بلومنطال التي تقف حافية على لوح من «النيروستا» موضوع على علبة كرتون، وتوزع ابتسامات الاغراء لكل صوب، كفتاة شارع كهلة، مدهونة بالألوان أكثر من اللازم.

عمري شارون لا يشعر بالراحة هنا. هو غير مبني للعب لعبة العشق هذه. وقد بُحّ صوته أيضًا. وطبقة من العرق تغطي وجهه. وقبل معرفة النتائج، يعلم أن أمرًا ما قد تشوش. وفلاديمير شكليار يتجول بوجه حزين أيضًا. والدلائل على أن ليبرمان هو الفائز، تتزايد. يدير الأمور من بعيد. صديقة مقربة تعرفه جيدًا، تقول عن عمري شارون إنه يذكرها بمدير سيرك منصف ومحترم، يتقيد الأسد والفهد والنمر بصفارته، ولكن الليلة حدث أمر سيء. الأسد والفهد والنمر يغرزون أنيابهم في جسد مدير السيرك. أمر عميق ومظلم ينبثق فجأة من داخل «الليكود»، «مباي» الجديدة تثبت أنها «مباي» غير قابلة للسيطرة.

أمير ليكودي معروف، مستقيم وساخر، قال لي بصراحة: من حسن الحظ ان الأموات لا يعودون. من حسن الحظ أن أبي لا يراني واقفًا هكذا في هذا الطابور المهين. وحقيقة، لم يتبقَ أي شيء هنا من «حيروت» (الحرية) والاحترام. لا شيء، حتى ولا اي ذكر. «الليكود» ٢٠٠٢ هو حزب شعب من نوع مختلف كليةً: من دون أيديولوجيا، من دون مبادئ، من دون آثار. بمعنى معين «الليكود» يذكرني بالذات بالحزب الديمقراطي الأميركي في مطلع القرن العشرين: شعبي وغريزي وفاسد، لكنه يقتحم قنوات من الاندماج الاجتماعي. يمنح

المهمشين عن المركز مظلة حماية من اغتراب المركز البارد.

ولذلك، فإن من اعتقد أن الصقور ينتصرون هنا على الحمائميين، فإنه لا يفهم ما الموضوع. من يعتقد أن نتنياهو يهزم شارون لا يعرف عما يتحدث. حتى نتنياهو الفظيع، بشحمه ولحمه، ليس إلا محكومًا تحت إمرة يوسي كاتس. ويسرائيل كاتس، عظيم الحجم، ومبتسم ومليء بالرضى والسرور، اقترب مني، ومن داخل بدلته الأيطالية الفاخرة، وعدني بأنه سيكون مثيرًا بعد قليل. ستكون مفاجآت.

عندما وصلت النتائج ذرفت مازال، خاصة عمري، دمعة في السر. كثيرون غشّوا، قالت. لقد غشوا رئيس الحكومة وإبن رئيس الحكومة. وصحيح أن أوري شاني يأتي ليعانق المرشح رقم (٢٧) في القائمة، عناقًا صداقيًا، ولكن الجوَ جوُ عجزٍ. في الثالثة صباحًا في «غانيه هتعروخاه» كان واضحًا للجميع أن عمري شارون قد يكون شراغا نيتسر، لكن يسرائيل كاتس هو ملك. يسرائيل كاتس هو المستقبل. وروني بار أون هو المستقبل أيضًا. وعائلة غبريئيلي أيضًا.

(٤)

محمد وأنا

السفرة مع محمد دحلة إلى مناطق ولادته في الجليل، تمر عبر قطبي هويته –الشيخ رائد صلاح وعزمي بشارة– وتثير إستنتاجات صعبة حول المستقبل المشترك للشعبين. من ناحيتهم، اليهود قد منيوا بالخسارة.

قبل المساء بقليل، سينظر محمد بعينيه البنيتين إلى داخل عينيّ وسيقول، إفهم أن هذا لن يعمل، رأسكم اليهودي أوجد هذا الإختراع، يهودية وديمقراطية، لكن الاختراع لن يعمل. لذلك، بدلا من التحدث والتحدث طيلة اليوم، خلال هذه السفرة الطويلة، ما كان علينا فعله هو الجلوس معًا بصمت ومحاولة صياغة دستور ما جديد، مشترك. لأنك لا تملك حليفًا آخر، أنا حليفك الوحيد. وبدلا من الذهاب إلى الحريديم فإنه عليك القدوم إلي. وبدلا من محاولة كشط أنصاف اليهود وأرباع اليهود وأثمان اليهود من مختلف أطراف العالم، فإن عليك أن تتحدث معي. لأننا هنا، في ساحتك الخلفية. أنا هنا ولن أذهب من هنا.

إذًا، تحدث إليّ، سيقول لي المحامي محمد دحلة. تحدث إلي، مُدّ لي يدك، إجعلني شريكًا. لإنك شئت أم أبيت، فأنت أقلية في الشرق الأوسط. وصحيح أن دولتك تشارك في

«الأيروفزيون» وتلعب كرة السلة في أوروبا، ولكن لو فتحت الأطلس ونظرت للحظة في الخارطة فسترى: ثلاثمئة مليون عربي من حولك؛ مليار ونصف المليار من المسلمين. فهل تعتقد حقًا أنه بوسعك الاستمرار في الاختباء في هذا المبنى المشوه للدولة اليهودية؟ هل تعتقد حقًا أنه بامكانك الاحتماء عن طريق هذا التناقض الداخلي الكامن في يهودية- ديمقراطية؟.

أن تعيشوا على الطابع اليهودي لدولة إسرائيل معناه أن تعيشوا على حد السيف، سيقول المحامي محمد دحلة، ولن تستطيعوا العيش لفترة متواصلة، على حد السيف. العالم سيتغير، موازين القوى ستتغير، الديموغرافيا ستتغير. في الواقع، فإن الديموغرافيا قد تغيرت. الضمان الوحيد المتاح أمامك هو أنا، الطريقة الوحيدة المتاحة لك للبقاء في الفضاء العربي المسلم هو التحالف معي. لأنك إذا لم تفعل ذلك، سيكون الوقت قد فات غدًا. عندما تصبح أقلية، ستبحث عني ولن تجدني.

لكن الدنيا صبح حاليًا، وحاليًا نحن في «غوش دان»، بين غديرا والخضيرة. ومحمد دحلة، صديقي وخصمي، يقول لي، أنظر إلى هذه الهندسة المعمارية: ما أغربها، ما أكثر اغترابها عن المكان. كأن قوة غازية جاءت من البحر وهبطت على الشاطئ. من دون أية حساسية، من دون أية علاقة مع الأرض. كأنّ المهاجرين الذي وصلوا إلى هنا لا يشعرون أبدًا بالبلاد وبماضيها. ويبنون بسرعة جنونية. يبنون باستعلاء وبعلوٍ وعن طريق الالصاق. ملصق بالأرض تمامًا.

إنتبه إلى اللافتات، يقول دحلة. غالبيتها بالعبرية وبالانكليزية، من دون العربية. لأن ما تريدونه هو أن يكون بامكان سائح من القمر أن يأتي إلى هنا وأن يتجول في البلاد وأن يصدق أن هذه بلاد عبرية بالفعل. توجد هنا دولة يهودية حقًا. لكنني أضايقكم. أنا والمليون وربع المليون عربي نضايقكم. لذلك فإنكم معقدون تجاهنا. ولكي يكون بامكانكم الاستمرار في هذه البدعة اللطيفة حول دولة يهودية- أوروبية، فإنكم تحاولون إخفاء وجودنا. تحاولون محو جغرافيتنا، محو تاريخنا، محو هويتنا. والآن أنتم تحاولون أيضًا محو تمثيلنا البرلماني.

هل فكرة دولة يهودية هي معدومة التبرير حقًا؟ ألا يملك اليهود الحق في تعريف أنفسهم

داخل حدود الرابع من حزيران؟ محمد يقول إن للجمهور اليهودي الذي يعيش اليوم في البلاد حق التعريف الذاتي. لكن يمكن فهم الأسباب التي حدت بالفلسطينيين إلى رفض إقتراح التقسيم في العام ١٩٤٧. ويجب إدراك حقيقة إنعدام المساواة في الحقوق. ليس هناك وضع متزن مبني على حق مقابل حق. لأنه في نقطة الانطلاق، في ١٩٤٧، يقول الحقوقي الشاب دحلة، لم يكن لليهود حق قضائي ولا حق تاريخي ولا حق ديني. الحق الوحيد الذي كان هو حق الضائقة. لكن حق الضائقة لا يمكن أن يبرر (٧٨٪). لا يمكن أن يبرر حقيقة أن الضيوف تحولوا إلى أسياد. وفي نهاية المطاف، من يملك الحق الأعلى على البلاد هم السكان الاصليون، وليس المهاجرين. من سكن هنا خلال مئات السنوات صار جزءًا من الأرض، كما أنها تحولت إلى جزء منه. نحن لسنا مثلكم. نحن لسنا غرباء ورُحّلا ولسنا مهاجرين. عشنا على هذه الأرض وتكاثرنا عليها منذ مئات السنوات. لذلك ليس بمقدور أحد أن يقتلعنا منها. ليس بمقدور أحد أن يفصلنا عن بعضنا البعض. حتى أنتم.

ولد في العام ١٩٦٨ في قرية طرعان، ودرس كثيرًا وعمل كثيرًا وشقّ طريقه بقواه الذاتية. وفتحت إنجازاته أمامه أبواب كلية الحقوق في الجامعة العبرية وامتاز فيها أيضًا. في العام ١٩٩٠ كان المتدرب العربي الأول في المحكمة العليا. في العام ١٩٩٢ كان المحامي العربي الأول في جمعية حقوق المواطن وفي العام ١٩٩٣ فتح سوية مع المحامي مازن قبطي مكتبًا ناجحًا على خط التماس في القدس. في العام ١٩٩٦ كان من مؤسسي «عدالة»، منظمة حقوق الانسان الفلسطينية. في السنوات ١٩٩٨- ٢٠٠٠ كان المستشار القضائي لواحد من قياديي السلطة الفلسطينية أثناء محادثاته السرية مع يوسي بيلين. قبل سنتين تزوج من سهاد، محامية ومقدمة تلفزيونية. قبل سبعة أشهر رُزق بإبنه البكر، عمر.

خلال سنتين مكثفتين في النصف الثاني من التسعينيات، كنا شركاء في إدارة جمعية حقوق المواطن. ولذلك، عندما نقطع البلاد بالمرسيدس الزرقاء خاصته، نديرمحمد وأنا محادثة تعتمد على المفاهيم المشتركة نفسها: حقوق الانسان، حقوق الأقلية، الديمقراطية الليبرالية. ولكن، على عكس الماضي، يجلب كل واحد منا إلى المحادثة التاريخ والنظرة القوميين خاصته. يجلب كل منا ضائقته الوجودية. وعلى عكس الماضي، يسهب محمد في

استعراض منظومته الحياتية الكاملة أمامي. لماذا توقف عن الأيمان بتقسيم البلاد. لماذا هجر حل دولتين لشعبين؟.

في سنواته في القرية، كانت هويته محلية. هوية إبن قرية. في الجامعة فقط تحول إلى صاحب وعي فلسطيني. وعندما كانت تدور النقاشات في لجنة الطلاب عن حل دولتين لشعبين الذي تطرحة «الجبهة»، مقابل حل الدولة العلمانية الواحدة الذي تطرحه حركة «أبناء البلد»، كان ميالا لحل «أبناء البلد»، بدا له حل «الجبهة» اصطناعيًا وغير كافٍ. حل الدولتين لم يحل مشكلة عرب ٤٨ ولم يحل مسألة العدل التاريخي من العام ١٩٤٨. ولكن عندما وُقع على اتفاق أوسلو اقتنع دحلة بأن لا حل آخر سوى حل الدولتين. وخلال سنوات معدودة، رأى من خلال مكتبه كيف أخذ الشرق الأوسط الجديد الخاص ببيريس، بالتشكل رويدًا رويدًا.

قبل عدة شهور من «كامب ديفيد» فهم أن لا أمل في العملية، أن ما سُمي بـ«العملية السلمية» هو في الواقع تركيع للشعب الفلسطيني، خدعة محكمة لتبييض الاحتلال. لكن بعد «كامب ديفيد» اقتنع كليةً: الشعب في إسرائيل غير ناضج لمصالحة تاريخية. الشعب في إسرائيل ما زال غير مستعد لمنح الفلسطينيين أقل ما يمكن من العدل التاريخي. لذلك استنتج أن لا مفر من المقاومة. أن لا مفر إلا في هزّ المجتمع الاسرائيلي. أنه في نهاية الأمر سيكون الحل حلا ثنائي القومية، دولة واحدة، ديمقراطية، بين النهر والبحر. دولة يكون فيها حق عودة فلسطيني، إلى جانب قانون العودة اليهودي. دولة تمكّن مستوطني الخليل من البقاء في بيوتهم تمامًا كما ستسمح للاجئي القرى المهدمة بالعودة إلى أطلال قراهم.

في يوم الجمعة الأول بعد أحداث أكتوبر سافرنا أيضًا، سويةً، إلى الشمال. زرنا بلدة «كتسير»، التي كان لنا نحن الاثنان نصيب معين في إلتماس محكمة العدل العليا، الذي يحمل إسمها (محمد دخل عندها إلى أحد البيوت وأدار مفاوضات وهمية حول شرائه، واستمتع لرؤية صاحبة البيت تتخبط في شبكة التناقضات، لبيع بيتها بسعر كبير لمسلم). وزرنا أم الفحم المتفحمة في لحظة ما بعد اللهب. وزرنا الشيخ رائد صلاح، رئيس الحركة الاسلامية (استقبلنا بعينين مشعتين وتحدث عن المساجد المهجورة في القرى المهدومة في كل

أرجاء البلاد، وعن الخطر المتربص بالأقصى، وعن أن اليهود لا يملكون أي حق على الأقصى. فحتى المؤرخين الاسرائيليين، قال، وحتى بحسب ملحق «هآرتس»، لا يملك اليهود حقًا على الأقصى، وكل قصتهم عن جبل الهيكل خاصتهم لم تحصل أبدًا).

وزرنا بيت الأجر في بيت عائلة شهيد في كفركنا (الأب الثاكل حدث بعينين براقتين، كيف أن إبنه، في كل مرة كان يعود فيها من مظاهرات، كان يقول لأبيه إنه يأسف لعودته إلى البيت حيًا). وزرنا شوارع الناصرة الفارغة ومطاعمها المهجورة. وما صدمنا في كل مكان هو الهدوء، صمت من الرعب. كأن اليهود الاسرائيليين والفلسطينيين مواطني الدولة خافوا جدًا مما قاموا به قبل قليل. وكأن الطرفين تقوقعا في داخل نفسيهما بما يشبه منع التجول الطوعي، منذهلين ومنتظرين للآتي.

لكن الآن، بعد سنتين وربع، هناك الكثير من الناس في كل مكان: يهود وفلسطينيون، وعلى الرغم من مرور سنتين من العمليات فإن وادي عارة يغصّ ثانية بالمتنزهين الاسرائيليين. وليست هناك كرسي فارغ في مطاعم الناصرة: القارضون العبرية والقارضون العربية، يغرفون الحمص جنبًا إلى جنب. ويطلبون لحمًا مشويًا بعبرية عالية وبعربية عالية. كأن السلام الداخلي عاد إلى مواقعه وكأن جروح أكتوبر الدامية التأمت. أكتوبر لم يحدث أبدًا.

وهكذا، عندما ندخل محمد وأنا ثانيةً إلى مكتب الشيخ رائد صلاح المتواضع، نتفاجأ: عيناه ليستا مشعتين ووجهه معذب، ومليء بالتجاعيد. يقول لي بعبرية فصيحة إن محاولة طرد العرب من أرضهم باتت قريبة جدًا. أن مشكلة الوسط العربي ليست مشكلة نفي، وإنما مشكلة وجود. وأن إقتراح اليسار نقل أم الفحم إلى الدولة الفلسطينية هو اقتراح لترانسفير أنيق. وأن مقترحات الحكومة المختلفة للتطويق على الحركة الاسلامية وإلغاء قوائم عربية، هي أيضًا جزء من محاولة لتنفيذ ترانسفير أنيق. وفي الضفة الغربية، إلى جانب نابلس، قاموا بطرد قرية كاملة والجميع صامت. لذلك، فإن الشعور السائد في القرى هو أننا نقترب من ٤٨ ثانية. أن الأمور تعود على نفسها.

يرتدي معطفًا غامقًا بسيطًا مع عباءته البيضاء، ويعتمر طاقية بيضاء لامعة، فوق رأس يندلع الشيب فيه. وكما كان فهو اليوم: كلي الاحترام والأصالة الدينية. لكن الشيخ يقول

لي، عبر الطاولة المغبرة: إن الصهيونية الدولية تفشل عن طريق خطأ صعب جدًا، في ربطها بين مستقبل الشعب اليهودي وبين مصالح الولايات المتحدة. في ظنها أنه بالامكان العودة إلى القمع الكولونيالي المشابه لذلك الفرنسي والبريطاني. لأن القيادة الصهيونية العالمية لا تفهم أن العرب لن يسكتوا هذه المرة، مثلما سكتوا مئة عام. لن يسكت مليار ونصف المليار من المسلمين. والصهيونية تخطئ في توسيعها لرقعة النزاع وتحوله من يهودي- فلسطيني إلى يهودي- إسلامي.

لست نبيًا، يقول الشيخ رائد صلاح. المستقبل بيد الله. ولكن لو استمريتم بهذه الطريق فإن النتيجة ستكون سلبية جدًا. فجورج بوش أعلن مرتين أنه يخرج لحرب صليبية. والتيار البروتستانتي- الصهيوني الذي يؤثر عليه، يريد أن تندلع في المنطقة حرب «ارمغادون»، هذا هو السبب من وراء نيتهم مهاجمة العراق وبعد ذلك السعودية ربما، وربما سورية أيضًا. ولذلك، ينذر الشيخ رائد صلاح، هناك خطر كبير الآن، على كل العالم، وعلى كل الشرق الأوسط، وبالتأكيد على البلاد. هناك خطر كبير على الأقصى أيضًا. وهذا خطأ من الصهيونية أن تذهب بمستقبل الشعب اليهودي كله إلى هذه الناحية المجنونة. فالناس المؤمنون بـ «أرماغدون»، يؤمنون بأن ثلثي اليهود سيموتون فيها. لذلك فهو قلق جدًا، يخشى من كارثة كبيرة. كارثة ستضع الشعب اليهودي في خطر.

نستمر نحو جليل محمد. نحو وطنه الصغير. وعندما نتعدى مفترق «ألونيم» ونقترب من مفترق «هموبيل» (مفترق كفر مندا، يقول محمد. ومفترق غولاني هو مفترق مسكنه، ومفترق بيت ريمون هو مفترق سولم)، يقول محمد دحلة إنه لا يوافق بالضرورة مع كل آراء الشيخ رائد، لكنه يحترم إستقامته وتواضعه وقدرته على العمل. فالشيخ رائد صلاح يبعث في كل أسبوع باصات مليئة من الجليل لزيارات للأقصى. «مسيرة الرايات» اسم هذه الحملة، التي تسير بنظام مطلق، بحجم آخذ في الازدياد.

على الرغم من أنه ليس مسلمًا مؤمنًا بنفسه، على الرغم من انكشافه للغرب وتبنيه العديد من قيمه، فإن محمد دحلة يقول إن الشيخ رائد صلاح هو بالنسبة له مدماك مهم في هويته. وفي الوقت الذي تتحدثون فيه عن ٣٠٠٠ سنة في القدس، وهذا وهم، فإن الشيخ

صلاح يمثل ١٤٠٠ سنة من التواجد الاسلامي في البلاد. وهناك أمر خلاب، يقول دحلة، هناك أمر إنساني عميق في هذه الاستمرارية. عندما أتأمل عينيّ الشيخ أتواصل، مثلما يحدث في الأنفاق الزمنية، مع خلافة عمر بن الخطاب، الذي سميتُ على اسمه. وأتواصل مع عظمة الاسلام. هذا يمنحني هدوءًا عميقًا لا تملكونه. شعورًا بالثقة بالنفس. أنا أعرف أن قدرنا ليس بأن نكون مهزومين وضعفاء. وأنا أعرف أننا في الواقع لسنا أقلية. فكرة الأقلية غريبة عن الاسلام. وهي تلائم اليهودية لكنها غريبة عن الاسلام. وعندما تنظر من حولك ترى أننا لسنا أقلية فعلا. أن في هذه البلاد أغلبية هي أقلية في الواقع، وأقلية هي أكثرية في الواقع. لذلك، في كل مرة يتعرضون للشيخ رائد فإنني أعرض عليه مساعدتي. أنا أعرض عليه ما بوسعي أن أعرضه، كخبير في القضاء الاسرائيلي.

نتوجه إلى موشاف «تسيبوري»، صفورية، يعلمني محمد. في الـ ٤٨ كانت قرية ضخمة فيها الآلاف. اليوم يصل عددهم إلى عشرات الآلاف: قسم منهم في سورية، قسم منهم في لبنان، قسم منهم في قرى الجليل. حتى زوج أختي هو من صفورية. وأولاده يرون أنفسهم من صفورية. وفي كل يوم استقلال نجتمع كلنا هنا في اعتصام ذكرى ضخم. لن ننسى، يعد محمد. لن ننسى ولن نغفر.

يرتدي بدلة خفيفة، وربطة عنق لونها ذهبي. مربوع القامة، أسمر البشرة، مجتهد. يفاخر بأن لون بشرته كلون هذه الأرض. فهو معجون بهذه الأرض. ويشير إلى مجموعة من نبات الصبار في الحديقة القومية في «تسيبوري» وإلى كومة أحجار منعزلة، ويقول، صحيح أن النكبة لم تكن مثل المحرقة، لكنه غير مستعد لقبول الاحتكار اليهودي على مصطلح المحرقة (الكارثة). صحيح أنه لم تكن هنا معسكرات إبادة، لكن النكبة، من جهة أخرى، وخلافًا للمحرقة، ما زالت مستمرة. وفي الوقت الذي كانت فيه المحرقة محرقة إنسان، فإن النكبة هي محرقة للانسان والأرض. خرابنا، يقول محمد. دمار وطننا.

بيوت الموشاف جميلة، بيضاء، حمراء السطوح. وفي واحدة من الحدائق أم شابة، جميلة، تفتح ذراعيها لطفل يخطو نحوها خطواته الأولى. لكن محمد يقول إنه لا يعرف كيف باستطاعة الناس أن يعيشوا هنا. يمكنك أن تتمتع بالمناظر الطبيعية في البداية، لكنك في

الواقع تعيش في مقبرة. قد تشعر بأنك تسير في حديقتك، لكنك في الواقع تدوس على جثث. وهذا غير إنساني، يقول محمد. مثلما حدث في فيلم جرى في منطقة ضواحٍ أميركية أقيم على مقبرة هندية، عادت أرواح المدفونين فيها إلى مطاردة سكان المكان. وأنا لست روحانيًا، يقول محمد، لكنني أشعر بالأرواح هنا. وانا أعرف أنها لن تتوقف عن المطاردة.

يجلس الكيبوتس المتدين «بيت ريمون» على رأس جبال طرعان، التي ولد فيها محمد دحلة وولد أبوه وجده وجد جده. نحن هنا منذ مئات السنين، يقول دحلة. منذ الأزل. لكن عندما نصعد في الشارع الجبلي نحو كيبوتس «بيت ريمون» يوضح لي محمد أن عشرات آلاف الدونمات من هذه المنطقة الجبلية كانت محمية من طرف المندوب السامي لصالح سكان طرعان، إلى أن جاءت الحكومة الإسرائيلية وأخذت الدونمات لكي تزرع على القمة «بيت ريمون أ» و«بيت ريمون ب» و«بيت ريمون ج»، لكي يسيطر اليهود هنا ايضاً، كما في كل مكان في الدولة، على الفلسطينيين من فوق، بينما يُسيطر على الفلسطينيين من تحت. اليهود يسكنون في «معليه أدوميم»، الفلسطينيون في محمية للأصليين.

عندما نجد مدخلا للدخول وننجح في تجاوز البوابة الحديدة للكيبوتس، يرن النقال: عائلة «المخرب» الذي حاول أن يفجر بالونات الغاز في «المسكوبية» في القدس، تطلب من محمد أن يمثله. محمد يوافق ويتصل فورًا بمحطة الشرطة في «المسكوبية»، ليفحص أين الموقوف. أسأله ما إذا كان «بيت ريمون» مستوطنة أيضاً، مثلها مثل المستوطنات. المنطق هو نفس المنطق، يرد محمد، الدماغ هو نفس الدماغ. حتى أن هناك تشابهًا في التخطيط. الحديث هو عن زرع غريب، قوة غريبة موجهة من أعلى تفرض نفسها على المشهد.

بعد الظهر بقليل. الهواء عليل والنظر مديد. أنظر إلى هذا الـ «متسبور» (بلدات صغيرة بنيت كمطلات على قمم الجبال– المحرر)، يقول محمد. وأنظر إلى هذا وإلى هذا. إنها مرتبة جدًا، عسكرية جدًا، أوروبية جدًا. يختلفون جدًا عن قرانا، التي تنبت من الأسفل كالشجر. من الواضح تمامًا أنها أشبه بغزو يهودي لأرضي الجليلية. فمن أجل ذلك أقيمت: للفصل بين قرية وقرية. لمنع تحويل أرض الجليل إلى أرض عربية. لمنع الجليل العربي من المطالبة بحكم ذاتي جغرافي ومنع المطالبة بالانفصال عن إسرائيل والانضمام إلى دولة فلسطين.

هل تفكر بجدية بالحكم الذاتي؟ أسأل. ومحمد دحلة يجيب: «الحل الأفضل في نظري هو دولة واحدة، ديمقراطية، للشعبين. لكن إذا لم يكن توجه نحو ثنائية القومية، فمن الواضح أن دولة فلسطينية مقلصة ومليئة بالثقوب ومتقطعة، وبلا مجال جوي، لا تكفي. هذه لن تكون دولة، هذه ستكون نكتة. لذلك، في حالة التصميم على دولتين، من الواضح أن موضوع الحكم الذاتي في الجليل سيكون مطروحًا. وعلى الحكم الذاتي هذا أن يكون جغرافيا، وليس ثقافيًا فقط. مع صلاحيات شرطية، تحكم فعال بالأراضي وبالثروات الطبيعية. يجب خلق ثلاث مناطق كهذه: في الجليل، في المثلث وفي النقب. الفلسطينيون الذين يعيشون في اللد أو الرملة أو يافا يجب أن يحظوا بذاتية شخصية ذات علاقة بالتجمعات الفلسطينية التي في داخل دولة إسرائيل»،

نحن نتجاوز قرية طرعان. من المهم أكثر عند محمد أن يريني أطلال القرية المهدمة المجاورة، لوبيه. ومع ذلك فإنه لا يستطيع صبرًا ويوضح لي كيف أن مسقط رأسه محاط من كل الجهات. هنا «بيت ريمون» الذي لا تستطيع السكن فيه؛ هنا المنطقة الصناعية التابعة لـ «تسيبوري» التي لا تملك مصانع فيها؛ وهنا معسكر جيش وأنت لا تملك جيشًا؛ وهنا موقع الذكرى (لـ كتيبة «جولاني»)، الذي يخلد ذاكرة ليست لك.

ولو فكرت أنك نجوتَ، يقول محمد دحلة، لو فكرت أن عائلتك نجحت في التملص من الكارثة بعد أن نُفيت لعدة شهور في ٤٨ في لبنان، فعندها يذكرونك هنا من كل صوب، بأنك مقيد. بأن وجودك مشروط. بأن لا حق لك هنا. والتخليد في مفترق «جولاني» هو تخليد المنتصر وإغفال المهزوم. ومع هذا الـ«ماكدونالدز» وناقلات الجند الحربية وأعلام إسرائيل، فإن مفترق «جولاني» يقول لك في الواقع من دون توقف- لقد انتصرنا عليكم. ولأننا انتصرنا، بمقدورنا أن نخلد أنفسنا داخلكم. في قلب قلب أرضكم الجليلية.

مرسيدس نجاح محمد دحلة تنزل إلى حرج «جنوب أفريقيا» الذي أقامه صندوق إسرائيل، وتصعد في طرق الحرج. هذا ليس حرجًا بريئًا، يقول لي صديقي محمد. هذا حرج «تبييض»، عن طريق هذا الحرج أوهمتم أنفسكم بأنكم تبيضون الجريمة.

وعندها يروي لي عن نقطة الأزمة عنده. في واحد من الأحاديث مع يوسي بيلين في أوسلو،

طلبوا أن تُستغل التعويضات التي ستدفعها إسرائيل للدولة الفلسطينية، كما أستغلت التعويضات التي دفعتها ألمانيا لاسرائيل. هذا كل ما طلبوه. ما يشبه الرمز الخفيف، غير المثقل. ومع ذلك خرج إسرائيليو بيلين عن طورهم. وبسبب هذه الجملة تفجرت المحادثات. عادوا بخفي حنين، من دون أي ظل -ولو كان خفيفا- للعدل التاريخي.

ويروي لي أنه بعد فترة قصيرة من أوسلو عاد إلى هنا مع محمود، قريب من طرف أمه، إبن قرية لوبيه. ورافقه في هذه الطريق، وعندما وصلا إلى هذا المكان، حيث ميز أطلال بيته، بدأ محمود بالبكاء. ضاع الوطن، بكى، ضاعت الحياة. والمحامي الاسرائيلي، محمد دحلة، وقف وبكى معه.

إذًا ماذا تريد أن تقول لي، أسأل محمدًا. أن الظلم الذي وقع هنا هو ظلم لا يُغتفر، لأنه في هذه اللحظة أيضًا، وأنتم تتنزهون هنا، فإن مهجري لوبيه وصفورية يذبلون في مخيم اليرموك ومخيم عين الحلوة، ولذلك فإن العدل يلزم بأن يُعطوْا الفرصة بالعودة. على الأقل، أن تُعطى الفرصة للذين يعيشون في مخيمات اللاجئين بالعودة؟.

أنا لا أعرف ما سيكون عددهم، يقول محمد دحلة. بالتأكيد ليسوا بالملايين، ربما مئات من الآلاف. لكنني أراهم عائدين. أرى أنهم سيعودون مثلما عادت عائلتي إلى طرعان مع الحمير وحاجياتهم المحمولة، بعد شهور في المنفى. في قافلة طويلة سيعودون.

عزمي بشارة يستقبلنا في مكتبه الخاص في الناصرة. ليست على البناية أية لافتة، ليس على الباب ما يدل، ولكن في داخل الديوان الواسع، اللطيف جدًا، معلق تطريز مع إطار لخارطة فلسطين. كل فلسطين. يافا من دون تل أبيب، اللد من دون رحوفوت، الناصرة من دون «مغدال هعيمق»، وجمال عبد الناصر، طبعًا. جمال عبد الناصر الأبوي يمشي إلى المقدمة بأسود وأبيض، في بدلة مع ربطة عنق، وإلى جانبيه ولداه.

هو حذر جدًا الآن، إلى أن تبت محكمة العدل العليا، فإنه يفضل أن يبدو كقط شبع داخل فروة كبيرة، بدلا من نمر خطير. وحار جدًا ولطيف جدًا. يسكب من القهوة العربية ويسأل عن الطريقة للتخفيف من الوزن. كيف يمكن مواجهة «عواصف القلب» في منتصف العمر. ويروي عن كتاب تنظيري إنتهى منه للتو ورواية إنتهى منها للتو. يشع ما يشبه التعب من

السياسة. ما يشبه التعب من المعارك.

في المذكرة التي قدمها إلى لجنة الانتخابات المركزية تظهر جملة غير مسبوقة. يُفهم منها الاعتراف بالطابع اليهودي لاسرائيل. أمام ناظري المحامي دحلة، يبرر بشارة: ليس اعترافًا بجوهرها اليهودي وإنما بطابعها اليهودي. ولكن من خلال أقواله، واضح أن بشارة قلق. يهمه ألا يُشطب.

ماذا سيحصل لو شُطب؟ هذا سيكون مفترق طرق تاريخي، محاولة لاعادة الفلسطينيين في إسرائيل إلى الستينيات. حتى التظاهر بالديمقراطية سيختفي. هل ستندلع أعمال شغب على طراز أكتوبر ٢٠٠٠؟ بشارة لا يريد أن يقول أي شيء يمكن أن يُشتم منه التهديد. ولكن دحلة يرفع رأسه ويقول، هذه ستكون بداية العد التنازلي لأكتوبر آخر.

عند خروجنا من الناصرة يوضح دحلة: بشارة هو المدماك الثاني في هويتي. بشارة يرمز لهامتنا الفلسطينية الحديثة المرفوعة. هو الرمز لجيل مرفوع الهامة. جيل لم يهرف الهزيمة، جيل لم يعرف مسح الجوخ. جيل لا يخشى من الاسرائيلية، لأنه بالذات يعرفها، جيل تعلم من الاسرائيليين الوقاحة. ولذلك فإنه لا يستجدي، بل يطالب. لا يحتمي، بل يهاجم. وهذا الجيل لا يفكر مثل أقلية ولا يحس مثل أقلية، لأنه يفهم أنه في الواقع ليس أقلية. المستقبل لنا، يقول محمد دحلة. وحتى لو حاولتم الاستعانة بعدد من الخدع فلن تنجحوا في الحفاظ على دولة غربية ذات طابع يهودي. كل ما ستجنونه هو قلب في الأدوار.

محمد تعبٌ جدًا الآن. يطلب أن أبدله في السياقة ويغفو. ولكنني، وأنا أسوق نحو الجنوب في الظلام، أفكر به وبي. ما هي إحتمالاتنا. ما هي الاحتمالات لأن نعبر هذا التاريخ الفظيع.

أنا أحب محمدًا. محمد ذكي ويقظ ومليء بالحياة. مستقيم، ظريف، وموهوب كالعفريت. لو أراد لأصبح منذ زمان قاضيًا، عضو كنيست، رئيس بلدية، وربما رئيس لجنة المتابعة. لكن ماذا سيحل بنا، يا محمد، أتساءل في العتمة. ماذا سيحل بابنتي تمارا وبإبنك عمر. ببلادي ببلادك.

(٥)

بين الأنقاض

الكاتبان عاموس عوز ودافيد غروسمان يتلقيان لمحادثة حزينة عن وضع الأمة عامةً وعن وضع اليسار خاصةً. الأول يوبخ القبيلة المنكوبة، الثاني يدافع عنها، لكن الاثنان سيصوتان بنفس الورقة.

الطريق إلى عراد تغيرت أيضًا. في اللقية حلت البيوت المبنية بدلا من البراكسات؛ في الحورة بناء مكتظ وفي الكسيفة أقيمت مآذن مساجد. التلال الصحراوية الشتوية التي إلى الجنوب من مفرق «شوكت» مُرقطة بما لا يُحصى من المباني الجديدة، التي تظهر واحدًا بعد الآخر في الفراغ الكبير الناجم عن غياب السلطة جنوبي بئر السبع، في الواقع الفوضوي الهائج بين جبل الخليل وغزة. وعلى جانبي الخط الاسفلتي المتعرج هناك منشآت مرتجلة لغسل السيارات، ومراكز بيع سريعة، ولافتات انتخابية كبيرة عليها صور لدهامشة والطيبي. ما يشبه الأرض المرتبكة. أرض الذي سيأتي. الذي يقترب رويدًا رويدًا وهو يقف بالباب.

عاموس عوز يستقبل ضيوفه بكنزة شتوية دافئة وبعناق دافئ وبنظرة دافئة. منذ أن رافق والديه في رحلتيهما الأخيرتين في كتابه الأخير، يبدو منطلقًا أكثر. منذ أن أتمّ إبداعه الأخير،

قصة عن الحب والعتمة، يبدو مرتاحًا وصافيًا وحادًا، يفيض على شطآن نفسه. دافيد غروسمان من جهته يحني برأسه باستسلام كالتلميذ في حضرة أستاذه. يرضى بانضباط وبتهذيب وباحترام شديد، بالمرجعية المفهومة ضمنًا، للمايستر، للمعلم، لكهل القبيلة. مرّ وقت غير قليل قبل أن يتحرر هو أيضًا ويرتاح في الكرسي التي في قبو الكتابة الشهير. قبل أن يتجرأ على اقتحام سيل الحِكَم غير المنقطع، الخارج من الينبوع المتدفق عوز.

قبل أكثر من سنة ونصف السنة كانت بينهما مواجهة صغيرة. عوز فكر أنه من الصواب مقاطعة ساراماغو اللاسامي، غروسمان فكر عكس ذلك. هكذا الأمور بينهما في الغالب: عوز مركزي أكثر، مؤسساتي أكثر، ونقدي أكثر بكثير فيما يخص أوروبا واليسار. ولكن في نهاية المطاف، كلما طالت المحادثة، إتضح أن الاختلافات في الرأي بين الاثنين ليست عميقة. الاثنان يصوتان لـ «ميرتس»، الاثنان ينفيان حق العودة، الاثنان يدعمان مسار كلينتون. الاثنان يعترفان بأخطاء اليسار ولكنهما يدّعيان صواب طريقه على الرغم من ذلك. عوز يدعم الانسحاب أحادي الجانب، غروسمان يقترب أكثر من جهود بيلين السياسية مقطوعة النظير. عوز يشدد بعناد على نوع ما من التفاؤل، غروسمان يسمح لنفسه بأن يكون تشاؤميًا أكثر. عوز يصوغ كلامه بانتقائية كبيرة تليق بكاتب - سياسي، غروسمان متردد وشخصي أكثر. المنطق والبلاغة عند عوز مكتملان، عند غروسمان التناقضات تأسر اللبّ.

هل أجريا حساب نفسٍ حقيقيًا؟ في كتاب من مجموعة مقالات نُشر مؤخرًا («في الواقع توجد هنا دولتان») حاول عوز أن يبني فهمًا واستيعابًا حمائميين مرتبين لما بعد الانفجار الكبير. حاول أن يؤسس لاقتراح «نهاية احتلال» يكون بوسعه أن يكون ممكنا في غياب نهاية للصراع أيضًا. ولكن من الواضح أنه وصيفه الذي يصغره سنًا لم يصحُ من الصدمة بعد. ما زال الاثنان «دائخين»، بين الانقاض. يحاول الاثنان بطرق مختلفة أن يواجها الحياة معدومة الأمل، الحياة في ظل الرعب.

عودة القدر اليهودي

- سؤالي الأول بسيط: ما الذي يخيفكما اليوم أكثر من أي شيء وهل هناك أمل؟

عوز: «الأخبار السارة أنه وللمرة الأولى في سنوات الصراع التسعين يعرف الجميع ماذا سيكون الحل. السنوات السيئة كانت في الوقت الذي لم يستطع فيه الفلسطينيون أن يلفظوا كلمة إسرائيل ولم يستطع اليهود أن يقولوا كلمة فلسطينيين. اليوم، يعرف اليهود أن الفلسطينيين لن يختفوا والفلسطينيون يعرفون أن اليهود لن يختفوا. لقد تبخر وهم أن يختفي الآخر. والجميع يعرف بالضبط ما سيكون عليه الحل. يعرفون حتى أين ستمر خطوط التقسيم»،

– إذا كان الحال جيدًا جدًا كما تقول، فلماذا هو سيء جدًا؟

عوز: «لأن المريض جاهز للعملية مع بعض الزيادة والنقصان، لكن الجرّاحين جبناء. لا أذكر زمنًا من الحضيض العميق عند القياديين في الشعبين. لو كانت اليوم قيادة تقول تعالوا لنفعل ما يعرف الجميع أن علينا فعله، لتحقق الأمر في غضون أشهر. الجميع يعرف أن غالبية المستوطنات ستُخلى، أن بعض التكتلات الاستيطانية ستبقى مقابل مبادلة أراضٍ، أنه لن يكون حق عودةٍ جارفٌ. فلماذا الانتظار إذن؟ ماذا ننتظر؟

«المصيبة، وأنا لا أستخدم هذه الكلمة بسهولة، المصيبة كامنة في الخوف الشخصي عند المجموعات القيادية. وعند القائدين الشخصين أيضًا. «شار–عفات» أسميهما. مستر «شار–عفات» (شارون وعرفات). ويمكن بالتأكيد القول عنهما إنهما على الشاكلة نفسها، لأن لدي شك عميق بأن الاثنين يفضلان هذا الواقع على الواقع الذي سيلي الحل. الاثنان لا يعرفان كيف سيعيشان الصباح الذي سيلي الحل، ولذلك فإنهما لا يستطيبان هذا الصباح. ما يبدو لي ولك كشروق جديد، هو بالنسبة لهما غروب»،

– دافيد غروسمان، هل توافق على ذلك؟ ما قيل يبدو تفاؤليًا نسبيًا. كل المشكلة تُختزل في شارون وفي عرفات.

غروسمان: «أنا أوافق على أنه يوجد هنا جُبن شخصي عند الشخصين اللذين يتمتعان بصبغة الشجاعة، والصمود وقت الخطر. أنا أوافق أيضًا على أن الاتفاق قد يكون قريبًا. لأنه معروف من جهة، ولأن الأميركان ملّوا والعالم ملّ، ويمكن أن يفرضوا علينا حلاً. لكنني متشائم أكثر من عاموس. أنا أخشى من أنه حتى حين نتوصل إلى سلام، ألا يكون هذا السلام

ورديًا ، بل سلام غير دائم . سيكون عندها سلسلة من المخاضات بفترات سلام ، وبعد ذلك خرق هذه الفترات ، وبعد ذلك سلام آخر . إلى ان نصل إلى ما يشبه الاستقرار نكون قد ذهبنا . ليس خلال حيوات من يجلسون في هذه الغرفة .

«سألت عمّا يخيفني أكثر من أي شيء . ما يخيفني أكثر من أي شيء هو أن ثقتي بوجود إسرائيل قد اهتزّت . هذا الشك كان موجودًا دائمًا . أنا أعتقد أن كل إنسان يعيش هنا ، يعيش بموازاة البديل بأن إسرائيل لن تكون . هذا هو كابوسنا . ولكننا مع مرور السنين صممنا هذا الكابوس وألصقناه وموّهناه . وما حدث هنا في السنتين الأخيرتين ، مع الاستيقاظ الكبير للمفاهيم والقيم والادراكات ، أن الاحتمال بتوقف وجود إسرائيل صار فجأة ملموسًا . هذا لم يعد هلوسةً . لم يعد كابوسًا . هناك احتمال بأن تكون جرت هنا تجربة كبيرة ، بطولية ، ولن تستمر . هذا الأمر يخيفني جدًا» ،

– جسّد لي ما تقوله . متى لقك في السنتين الأخيرتين هذا الخوف الوجودي ؟

غروسمان : «في الكثير من المرات . أنا أعتقد أنه في مهب هذا الكم من العنف ، تفتّتتْ هنا طبقة من الثقافة كانت تُمكّن من وجود الأوهام الضرورية لتسيير نسيج حياتي محتمل أكثر . خذ ما حدث في اللجنة المركزية للانتخابات أو في برايمريز (الانتخابات الداخلية لـ «الليكود») ، أنت تكتشف فجأة أن الحياء قد اختفى . أن أنظمة المداهنة الاجتماعية اللازمة لتسيير نسيج حياتي ، قد اختفت هي أيضًا . وبشكل أو بآخر ، كل هذا متعلق بالحياة تحت الارهاب . لأنه إذا كنت تحيا في واقع ترى فيه الناس يتمزقون ، فإنه من الصعب جدًا عليك أن تستمر في أيمانك بشيء ما . عندها ترى كيف تتفكك كل المنظومات : الخاصة بالجسد الخاص والخاصة بالجسد العام . وعندها تستخلص أنه ومن أجل وجود الثقافة ، وخاصةً من أجل وجود الديمقراطية ، نحن بحاجة إلى نوع معين من الوهم باتفاق اجتماعي مبني على الكثير من الإرادة الطيبة . اهتزّ هذا الأمر عندنا . ببساطة ، إهتزّ . وعندما أسمع الآن عن الأصدقاء الذين يرسلون أبناءهم إلى خارج البلاد ، وعندما يستحسن الناس أن إبنك في الهند ، وليبْقَ هناك ، فإن في ذلك تشكيك كبير لكل ما اجتمعنا من أجله هنا . نحن لم نجتمع هنا لكي نضطر لارسال أبنائنا إلى خارج البلاد . لكي نرغب بأن يكونوا في الهند . نحن اجتمعنا هنا لكي

تكون الغريزة بالبقاء وليس الهرب، حتى في حالات الخطر. واليوم هذا ليس مفهومًا ضمنًا»،

عوز: «شعوري يختلف عن شعور دافيد. مخاوفي الوجودية ليست بعد مخاوف يهودية إسرائيلية؛ هذه المخاوف أيضًا تعولَمتْ. لكنني بدأت بالأخبار السارة وسأنتقل إلى الأخبار السيئة. هناك عدة ساعات كبيرة تُتكتك: أولا، هناك موجة من الكراهية تغمر ليس فقط «حماس» والكاهانيين. هذه موجة عالمية. التجسيد الأنصع والمزعزع لها هو الأصولية الاسلامية. من بين ٢٩ نزاعًا تُسفك فيها الدماء اليوم في العالم، في ٢٧ منها هناك طرف واحد مسلم على الأقل. من الشيشان وحتى الصومال، من الجزائر وحتى الفيليبين. لكن الاسلام ليس وحيدًا. هناك تطرف مسيحي مع بيانات لاسامية أوروبية وهناك تطرف ديني – قومي يهودي. وكل هؤلاء يشبهون بعضهم البعض بعدة معانٍ. كلهم علامات استفهام متنقلة.

«هناك أيضًا ساعة ما بعد حداثية تضع كل ذلك في رؤية نسبية. وربما توجد علاقة بين الاثنين. تطرف واحد يولّد تطرفًا ثانيًا. إما أن تكون هناك حقيقة واحدة ومن لا يوافق عليها يجب قتله، وإما أن كل شيء هو حقيقة والكل متساوٍ وللقتلة أيضًا حقٌ بأن يقتلوا. انتبها إلى أن هناك علاقة غريبة بين مجموعات ما بعد حداثية متطرفة وبين مجموعات أصولية. أحيانًا، عندنا أيضًا هناك دعم من طرف مجموعات تقدمية جدًا لمجموعات عنيفة جدًا. لكن هذه الساعة لا تُتكتك في البلاد فقط، وإنما في كل العالم.

«الساعة الثالثة التي تثير قلقي هي ساعة العولمة. لا أقصد تلك العولمة التي يحتج عليها المحتجون، ولكن أقصد العملية الكبيرة لاستغباء الجنس البشري كله. جهاز لغسل الأدمغة لم يسبق له مثيل على ما يبدو. جهاز مبني على إثارة – الشهية، وهو يحل محل كل ما عرفناه كثقافة. لذلك، يا دافيد، عندما تتحدث عن انعدام الثقافة، فإن هذا ليس متعلقًا فقط بـ «حماس» وبالجثث المبترة. هذا متعلق بالشعور بأننا وُلدنا لكي نشتري أو نبيع وبالشعور بأن كل شيء عابر. بهذا الاستغباء الفظيع الذي يغمر البشرية كلها.

«سأقول أمرًا غير شائع: ليست هناك ثقافة بدون هَرميّة. ليست هناك ثقافة عن طريق التصويت وليست هناك ثقافة بحسب استطلاع للمشترين وليست هناك ثقافة بحسب الريتنغ

(الانتشار). ليس هناك أمرٌ كهذا. لذلك فإن خوفي ليس محليًا. من الواضح أنه في عالم الحرب العالمية الرابعة، عالم يستطيع فيه شخص مع مغلف من الجراثيم أو السم الكيماوي أو التلويث الاشعاعي أن يهدد بلدًا بأكمله، فإنني أخاف جدًا. لكن هذا الخوف ليس ذلك الخوف القديم، «البوغروم»، من أن يأتي الأغيار مع بلطات ويقتلونا. الحديث ليس عن الخوف من تدمير إسرائيل».

– متى شعرت مؤخرًا بالخوف القديم إياه؟

عوز: «في اليوم الثالث أو الرابع من حرب الغفران، عندما رأيتُ السوريين يتقدمون في هضبة الجولان ونحن نهرب. أذكر أنني لم أعرف عندها من سيوقفهم. الخوف كان حقيقةً خوفًا وجوديًا وبالتأكيد خفتُ عندها، ليس فقط على حياتي وإنما على نيللي والأولاد وعلى كيبوتس «حولده» وعلى كل البلاد. أذكر أنه عندما جلسنا إلى جانب جسر «بنات يعقوب»، سخرنا من أن من سيوقف الجيش السوري في الخضيرة هو الجيش المصري. اليوم، أنا لا ينتابني مثل هذا الخوف، لا أشعر بأن دولة إسرائيل تواجه خطر التدمير».

غروسمان: «مثل عاموس عوز أشعر بأنه في الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ بدأ ما يشبه الحرب العالمية بوتيرة بطيئة. حرب ما زلنا لا نستوعبها حتى النهاية. وهناك شعور ما عالمي بأن شرخًا حدث في النظام القديم ونحن ننظر إلى الداخل ونرى كل الأمور التي خشينا من رؤيتها. الفوضى آخذة في الازدياد.

«لكن في نظري، ومع ذلك، هناك تميز ما للخوف اليهودي والاسرائيلي في السنتين الأخيرتين. أرجو ألا أسمع كمريض بالملاحقة، لكن إحساسي هو ان شيئا ما تغير فينا بأنه منذ اندلاع الانتفاضة وما اعقبها من اندلاع الموجة اللاسامية والتهجم على إسرائيل في العالم. أنا أعتقد أن الاسرائيلي الحديث في سني، الذي اعتقد أنه كونيّ، أنه أممي، أنه جزء من شبكة الانترنت وعنده الصحون الفضائية وMTV، بدأ فجأةً بالاحساس كيف أن الجزء التراجيدي من القدر اليهودي يضيق عليه ثانيةً. فجأةً، علقَ في داخل أمرٍ اعتقد أنه لم يعد موجودًا.

«يا عاموس، لا يمكنك تجاهل أننا ننغلق هنا تدريجيًا، نتيجة تهديدات ونبذ. وهناك شعور بأن اليهودي الذي أتى إلى أرض إسرائيل وبنى هنا دولةً لكي يؤسس صلةً مع أساس متين، مع

كينونة ملموسة، ها هو يصير فجأةً رمزاً لشيء آخر. وأنتَ، الاسرائيلي الذي حاول أن يبني كينونة ملموسة، تجد نفسك رمزًا لشيء آخر. لأن اليهودي كان دائمًا إستعارةً لأمر آخر، لم يُستوعب أبدًا كأمر قائم بذاته. والآن يعود هذا الأمر. كل إسرائيلي تقريبًا، يشعر في السنتين الأخيرتين، بأن هذا يعود.

«كانت هناك دائمًا صعوبةٌ في التعامل معنا نحن اليهود، كبشر. كان هناك دائمًا إقصاء لنا وكانت هناك مثالية لكن الأمرين هما في واقع الأمر أشكال مختلفة لإلغاء الانسانية. والصهيونية على الرغم من ذلك شفتنا من ذلك. الصهيونية أعادتنا إلى العملي، إلى الانساني وإلى التاريخي. وها نحن الآن نعود ثانيةً إلى ذلك المكان الرمزي، وهذا يبدو لي خطيرًا. وهذا يقوي أيضًا من الشعور بالملاحقة الموجود فينا أصلاً، ويمتصنا إلى الجرح الذي في اليهودية، إلى مضامين التضحية والمصيبة التي بها. الابداع والضرورة والتضامن الاجتماعي واللهفة الأخلاقية التي بنا، بدأت بالانطفاء الآن والمكان يفسح المجال للشعور بتراجيدية القدر اليهودي الذي كأنه عاد ليضيق الخناق علينا»،

النفور الجارف عند اليسار

– عاموس عوز، أنت كتبتَ عن هذه المشاعر قبل الانتفاضة بكثير.

عوز: «كان لدي دائمًا الشعور بأننا على جليد دقيق، بأننا مع وقف التنفيذ. متعلقون بالسلوك الحسن، ببنك ذكرى الهولكوست. سأقول كالتالي: هناك أوساط كبيرة في العالم العربي وربما في الاسلام أيضًا، لم تتغلب بعد على الاهانة الكبيرة التي سببها قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨. هذه الهزيمة كانت في نظرهم تتويجًا لثماني مئة سنة من الاذلال. ثماني مئة سنة لم يفوزوا بها في معركة خارجية واحدة. منذ صلاح الدين، ولا معركة واحدة، ليأتي هذا الفأر، هذا الحقير، ويهزمنا؟ ليأتي اليهود ويهزموهم. ومرة أخرى ومرة أخرى ومرة أخرى. بحيث أن هذا مفهوم في العالم الاسلامي، هذه إهانة.

«في العالم المسيحي، الأمر أعمق بكثير. لأنه في الرواية المسيحية، هناك عنصر عميق ومظلم. الناس تكبر في الدين المسيحي على قصة تقول إن هناك من يستطيع أن يقتل الله. والذي بامكانه أن يقتل الله هو أيضًا قوي جدًا وذكي، فوق – إنساني، لكنه سيء أيضًا. فمن

يود قتل الله؟ الذكي والشرير. الملايين من الأطفال المسيحيين يفتحون عيونهم في كل العالم، والصورة الأولى التي يرونَها هي لشخص ينزف دمًا على الصليب. وعندما يفهم الطفل المسيحي أن هذه صورة الله المحتضر، يسأل من هو المجرم، من فعل ذلك لله، وهذا يتسرب أيضًا لمن هم ملحدون. لأن الناس الذين انتقلوا إلى هامش اليسار ولم تطأ أقدامهم أرض الكنيسة، تربوا على حليب الأم هذا. ليس معنى هذا أنهم لاساميون بالمعنى الاعتيادي للرغبة في قتل كل يهودي، لكن لديهم نوعًا من الخليط بين الاعجاب والخوف. وأحيانًا، لديهم سقف مرتفع جدًا من المطالب الاخلاقية تجاه اليهود. وكأنه بعد أن برأنا ساحة اليهود من المسؤولية عن الصلب الجماعي للمسيح وأنزلناهم عن الصليب وأخرجنا منهم المسامير، فإن عليهم أن يثبتوا أنهم يستحقون هذه البراءة.

«هنا يكمن الأمر العميق: ما عدا إسرائيل، ليست هناك أية دولة في العالم وجودها مشروط ومع وقف التنفيذ. لإسرائيل يقولون، إذا تصرفتِ كذا وكذا، فإن لكِ حق الوجود. إذا لم تتصرفي– فليس لك الحق وكل ما كان كان من باب الخطأ. أحسِنوا التصرف – تعيشوا؛ أسيئوا التصرف – تتفككوا. لم يقل أحد ذلك عن ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

«لكن ما يبعث على الخوف بشكل خاص هو العدد الكبير من الاسرائيليين الذين ذوّتوا ذلك من صفوف اليسار المفكر المتنور ومحب السلام. هم أيضًا ينظرون الى إسرائيل اليوم كدولة مشروطة (مع وقف التنفيذ)، كدولة يرتبط حقها في الوجود بتصرفاتها. وعندها تجد في تل أبيب أناسًا يعارضون حكم الاعدام على قتلة محترفين ويعارضون حكم الاعدام على المغتصبين وعلى المخربين، لكنهم يدعمون حكم الاعدام على دولة لا تُحسن التصرف. لدولة واحدة معينة لا تُحسن التصرف. في نظري فإن هذا فظيع. هذا التوجه فظيع من الناحية الأخلاقية».

– أنت تدّعي أنه في وسط المثقفين اليساريين الحمائميين في إسرائيل، هناك نوع ما من الترداد للتوجه المسيحي اللاسامي تجاه دولة اليهود؟

عوز: «في فترة الفظائع التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر، كانت الطبقة المثقفة في فرنسا بائسة. وهكذا الأمر بالنسبة للطبقة المثقفة الأميركية خلال حرب فيتنام. ولكن لم أرَ في أي

مكان ما أراه هنا : هذا الكم من الكراهية للتجربة الذاتية كلها . ليس للسلطة ، بل للتجربة الذاتية كلها . عند قسم من المثقفين الاسرائيليين الراديكاليين أرى اليوم كراهيةً ليست تجاه المتدينين والمستوطنين واليمين والقومويين فحسب ، بل أرى كراهيةً جارفةً للهندسة المعمارية ، للموسيقى ، للأغاني الشعبية ، للذكريات ، لكل شيء . للشوارع التي يمشي فيها الناس . للحافلات التي يسافر فيها الناس» .

غروسمان : «أنت تبالغ» .

عوز : «ربما كنت أبالغ في كلمة كراهية . ربما الكلمة الأدق هي كلمة نفور . لكن النفور جارف . وأنا أرى هنا حقيقةً ، عند قسم من المثقفين الراديكاليين ، أمرًا ما ينضم إلى الملاحقة العامة التي تقول إن إسرائيل هي مشروطة . إذا ما كانت قطعة حلوى - نعم ، لديها حق في الوجود . لكن إذا لم يكن هذا الكيبوتسات ولا معهد وايزمان ولا الشعراء والأدباء - إذن ما الجدوى من كل ذلك ؟ لماذا يجب أن يكونوا ، هذا لا يقوله أحد عن اليمن . لا أحد يقول أمرًا كهذا عن أيسلندا . وهنا يختبئ أمر ما يثير حفيظتي جدًا . يثير حفيظتي عندما يأتي من الداخل أكثر مما يثيرها عندما يأتي من المثقفين الأوروبيين المسيحيين» .

غروسمان : «أعتقد أنك تبالغ . هؤلاء الناس يقولون ما يقولونه من قلب متألم . هم يتألمون لما يجري هنا . يتألمون للبون الشاسع بين الحلم وبين الواقع . وهم ليسوا كُثُرًا أيضًا ، وغير مهمّين جدًا . لذلك فإن ما يثير إهتمامي أكثر هو كيف أننا بعد ٥٤ سنة من الاستقلال ، ما زلنا على إشتراط . كيف أننا لا نؤمن حقًا بوجودنا . يخيل لي أن هذا هو السؤال الجوهري . ماذا يعني هذا الشيء ؟ هل لدينا كيهود جينة وراثية تجعلنا غير قادرين على البقاء حقًا في مكان واحد ؟ في الواقع ، طيلة الوقت كان لدينا هذا الأمر ، إنعدام السكينة ، هذا الأرق . ما يشبه عدم الحسم فيما إذا كنا شعبَ مكانٍ أم شعبَ زمنٍ . وفي المنفى قررنا أننا شعبَ زمنٍ . شعب العالم . ولكن حتى عندما أتينا إلى هذا المكان لم ننجح مع ذلك في بلورة الاحساس بالهوية لدينا كشعب مكان .

«انتبها لهذا الاسم : أرض الميعاد . هذه الصياغة تدل على إستمرارية للأبد . هذه ليست أرض الوعد وليست الأرض التي وُعد بها ، ولكنها الأرض الموعودة إلى الأزل . هذه أرض لا

تصل إليها أبدًا»،

– هل تنظر إلى حولك وتشعر بأن كل شيء هشٌ؟

غروسمان: «هنا يغلب موضوع العُطب في طابعي الشخصي: أنا أشعر دائمًا بأن كل شيء هش. عند الكتّاب، يحضر البديل بشكل طبيعي. الاحتمال الدائم ربما بمقدم المصيبة. لكن ما يقلقني اليوم هو ليس التفكير المبسط عن هذا الموضوع، وإنما ما أراه كضياع التضامن الاسرائيلي. الشعور بأن ما كان يومًا جسمًا إسرائيليًا واحدًا، تحول إلى شظايا. وكل شظية تهتم الآن بنفسها، وفقط بنفسها. كل واحد يكشط لنفسه حصته الصغيرة ويتلذذ بها. حاييم غوري قال مرةً في حديث معك إنه كانت هناك سذاجة وبراءة عند أبناء جيله. اليوم، هذا الأمر معدوم. ليس لأنه لا يوجد أي شعور بالتضامن، وإنما لا توجد أية هارمونيا اجتماعية. كما أن الهيبة من القانون معدومة، ليست هناك روح شعب مشتركة. شعوري هو أن الجسم العام يتفكك».

– عاموس عوز، أنت أيضًا تخشى من تفكك الدواعم الاجتماعية عندنا؟

عوز: «في كل خلية حياة هناك قوى تكامل وهناك قوى تفاضل: التكامل يمسك باليد والتكامل يشدّ للانقطاع عنها. في اللحظة التي يتغلب فيها التفاضل على التكامل يُحسم مصير الخلية. لذلك، فإن ما يقوله دافيد صحيح. الخوف الحقيقي اليوم من أن يضعف التكامل الاسرائيلي وأن يتقوى التفاضل.

«لكنني أريد أن أطور هذه النقطة خطوة أخرى: هل كل ما ذُكر هو نتيجة للانتفاضة فقط؟ هنا أيضًا لديّ حساب مع عنصر معين في شريحة المثقفين اليسارية الاسرائيلية. قلت آنفًا إن هذه الشريحة تبث نفورًا جارفًا. لهذا النفور ثمن. لأن النفور يجر نفورًا، وغضبًا ومهانةً. وعندما يُرى النفور كنفور فوقي يكون أكثر دمارًا. المهانة التي تسببها تكون أثقلَ. فهذا النفور في النهاية موجه من الذين يملكون إلى الذين لا يملكون. هذا النفور يأتي ممن ما زالوا يُروْن كأسياد البلاد، وهو موجه ضد الذين يقفون في الطابور: الحريديم، والمستوطنين، والشرقيين.

«أنا أقول إننا سنخسر هذه الانتخابات، ومن ضمن مسببات خسارتنا، ما أشعناه طيلة

الوقت من نفور تجاه كل من ليس مثلنا . ما مضمونه : لا نريد رؤيتكم . غيبوا عن عينيّ . لا تكونوا هنا . في نظري هذا مسؤولية ثقيلة جدًا ، أخلاقية ، تتحملها شريحة من المثقفين الاسرائيليين . لأنها خلال كل الوقت الذي شعرت فيه بأنها تتحكم بالأمور ، لم تبث مثل هذه الأمور . هذه الشريحة بدأت ببث هذه الأمور بعد أن شعرت بأنها تفقد زمام السيطرة . وهنا المكان لحساب نفس عسير جدًا لأن هذه الشريحة هي التي قوّت من التفاضل . وعندما تقول ما تقوله ، يا دافيد ، عن التفكك وانعدام الحياء ، هكذا تكون النتيجة . اللجنة المركزية للانتخابات ومركز «الليكود» هما النتيجة .

«عندما بدأ حانوخ ليفين طريقه قبل أكثر من ثلاثين سنة ، كان أشبه بلامع وحيد ، مثير جدًا . ولكن وخلال عدة سنوات ، تحولت كل تل أبيب إلى حانوخ ليفين . تحول حانوخ ليفين إلى اللبنة المركزية في نهج الأعراف التل - أبيبي . وعندما تجد فرقة كاملة من الحانوخ ليفينات ، عندما يتحول حانوخ ليفين إلى «الصراط المستقيم» ، فإن البرايمريز في «الليكود» هو أمر محتّم . عندما يستسلم الموجهون في المجتمع إستسلامًا كاملاً للتهكم والسخرية ولكشف المنافقة ولبث «الحوامض» ، فهذه ستكون النتيجة . لأنه إذا كانت كل اسطورة الصهيونية عبارة عن حزمة من الغرائز والمصالح المغلفة بالتملق ، فلي أيضًا مصالح شخصية . لماذا تكون المصالح لهم فقط ؟ أنا أيضًا أريد حصةً . »

أخطاء اليسار ، ذنب اليمين

- أود السماع عن السيرورة السياسية الشخصية لكل واحد منكما . عن سيرتيكما الذاتيتين كيساريين . متى تشكلت المنظومة الحياتية لديكما ، وكيف تطورت وماذا حل بها في السنتين الأخيرتين .

غروسمان : « كنت في الثالثة عشرة عندما اندلعت حرب الأيام الستة . أذكر الخوف الذي سبقها . أذكر التجسيد الفعلي لامكانية أن يلقوا بنا إلى البحر . في الشتاء الذي سبق الحرب بدأت بتعلم السباحة في جمعية الشبان المسيحيين في القدس ، لأن هذه الامكانية كانت حقيقية . السباحة بدت لي كخيار يمكن أن يصير حقيقيًا .

«بعد ذلك جاء الاحتلال . وفيما يخص جيلي ، كان هناك نوع من الدمج بين الطاقات

الجنسية المراهقة مع طاقات الاحتلال. لا يمكن تجاهل هذا الأمر: فجأة هذا الولوج وكسر التابو والدخول إلى تلك الأماكن المقدسة. شيء ما يشبه الايروسية في الملامسة بين المحتل والمحتل. أنا اذكر تمامًا الشعور الجسدي، الشعور بالقوة. وبالمقابل، كان هناك القلق. والداي المابائيان (من حزب «ماباي» المحرر) توجها في حينها إلى اليمين أكثر فأكثر، نتيجة للقلق. وخلال خدمتي العسكرية كنت انا أيضًا ما يسمى اليوم باليمين. خدمت في المخابرات وعرفت ما يفكر به العرب عنّا. لم يفكروا عنا أشياءً حسنة جدًا. وحتى اليوم لا أزال على معرفة بقلق اليمين.

«بالنسبة لي، جاءتني الصدمة في حرب لبنان. في البداية وافقت تمامًا على الشعار بأننا خارجون إلى حرب لقطع دابر الارهاب. لكن عندما خدمت كجندي إحتياط في قرية صغيرة في القطاع الشرقي بدأت برؤية أمور لم أود سابقًا رؤيتها. وفجأةً، انفجر خارجًا كل ما عملت على كبته وإنكاره.

«هناك لحظة واحدة معينة لا يمكن نسيانها. بعد فترة ما من عودتي إلى البيت في القدس سافرت في الحافلة من «تلبيوت» (حي الطالبية في القدس- المحرر) وتوقفت الحافلة إلى جانب حافلة قادمة من بيت لحم أو الدهيشة. وفجأة رأيتهم. وقفنا حافلة مقابل الأخرى وفجأةً رأيت الناس الذين جلسوا في تلك الحافلة. رأيتُ وجوههم، رأيتُ يأسهم. كان لدي شعور قوي بأنهم يشبهون الأشباح. كأنما امتُصّت منهم كل الحياة التي بهم. تأملتُ وقلت: إنه هكذا يكون الانسان المحتل.

«عندما كتبتُ كتاب «ابتسامة الجدي» في العام ١٩٨٣ كنت قد جربت فهم مرض الاحتلال. سألتُ نفسي كيف يُعقل أن شعبًا، هو شعب أخلاقي في نظري، يصل إلى هذه الدرجة؟ وكيف أن الطرفين عوّدا نفسيهما على تطوير نظرة «بيضاء» لا ترى. فالمحتل (صيغة المفعول) يخجل من وضعه والمحتل يفضل أيضًا ألا يعرف ما يفعله. عندما وصلتُ إلى الدهيشة، خفت جدًا في اللحظة الأولى من الزمن الأصفر («الزمن الأصفر» هو اسم كتاب كتبه غروسمان وفيه كتابات أدبية – صحافية عن المناطق المحتلة، وقد ترجمه محمد حمزة غنايم الى العربية وصدر عن «دار الشفق» في العام ١٩٨٩). وقفتُ هناك ما يقرب الثلاث ساعات

محاطًا بأناس شكّوا فيّ جدًا. بالنسبة للعديد من الأطفال كنت الاسرائيلي الأول الذي رأوه بدون البزة العسكرية. إلى أن جاءت امرأة مسنة وكأنها فهمت أمرًا ما واخترقت دائرة الرجال وقالت لي: تعال. أخذتني إلى كوخها. وبدأت بالحديث والحديث. وهناك فقط، فجأةً، تشكلت تجربة عاطفية. بعد كل التفسيرات وبعد كل الادعاءات لصالحنا وضدنا، فجأةً، انساب أمر ما هناك. تدفقت العاطفة. تشوقوا جدًا لكي أعترف بمهانتهم».

– الآن، ماذا كانت الصدمة الأصعب في السنتين الأخيرتين المنصرمتين؟

غروسمان: «اللينش في رام الله. كان هذا ما يشبه نقطة إنكسار عندنا جميعًا. انبعاث للمخاوف الأكثر عمقًا والاستعداد للاستسلام للأفكار المسبقة. الاستعداد للقول إنهم جميعًا كذلك. لكنني رأيتُ في مثل هذا التفكير إستسلامًا. اليوم أيضًا أرى فيه تنازلاً. وأنا أومن بما يشبه الصمود عند السلام. عدم التهاون، عدم التنازل. الاستمرار في الإيمان باحتمالات حل عقلاني».

– هل هناك لحظات تشكك فيها بذلك؟

«غروسمان: «طبعًا. أحيانًا أقول لنفسي، إسمع، ليس هناك أي أمل. في عدة مفاهيم، ليس هناك أي أمل. أنا أنظر إلى خريطة إسرائيل الصغيرة، التي لا يمكن حتى كتابة إسمها عليها، التي يجب أن تلقي ببعض الحروف من إسمها لكي تتسنى لك كتابته، وأنظر إلى كل من يحيط بها. الأصولية التي تندلع هناك. انعدام الديمقراطية في الدول العربية. حقيقة أن الشرق الأوسط لم يقبلنا فعليًا.

«لكنني في نهاية الأمر أشعر بنوع من المهانة الشخصية في التنازل. لست أعمى عن نواقص شريكنا. لا أقع في خطأ التوهمات. كما أنه ليست لدي ثقة في النوايا الحسنة عند العرب. العرب لم يبادروا لأية نية حسنة تجاهنا ونحن لم نبادر تجاههم. لكن في ١٩٦٧ علقنا في متاهة في الوقت الذي نتحرك فيها طيلة الوقت. ونحن نكرر مرةً بعد أخرى الأخطاء ذاتها. وأنا أعتقد أنه مع كل قوتنا العسكرية يجب أن نملك الشجاعة للخروج من هذه الدائرة. أن نتوقف عن التأرجح للحظة بهذا الغصن، قبل أن نمسك بالغصن الثاني وهو الأيمان بالسلام. ونحن لم نملك الجرأة لتنفيذ هذا الانتقال الشجاع حتى اليوم. نحن ما زلنا خائفين».

- في نهاية الأمر، هل فشل اليسار أم فاز؟ هل أخطأ أم كان على حق؟

غروسمان: «بشكل واضح، اليسار فشل لكنني فخور بأن أكون جزءًا من هذا الفشل. من توجه إلى أوسلو عرف أنه في الما بين. أنه من الصعب جدًا حل نزاع من مئة سنة في ضربة واحدة.

«كان لليسار خطآن أساسيان: ثقة أكبر من اللازم بالعقلانية، تكاد تكون مثلنة العقلانية، وخطأ أساسي في تقدير القوة. يبدو لي أن اليمين يملك في هذا المنحى غريزة أصح بما يخص القوة وبما يخص أهمية قوة الردع. هذه مهمة في المنطقة العنيفة والأصولية التي نعيش فيها. لكن أخطاء اليسار في نهاية الأمر كانت في التفاصيل. وربما أيضًا في تقدير شخصية عرفات، الذي يبدو أنه إرهابي في دمه. مقابل ذلك، أخطأ اليمين في الصورة الشمولية. اليمين آمن بأنه من الممكن إقامة سلطة إحتلال، ولذلك، في الحساب الأخير، ليست لدي أية ترددات فيما يخص مكان تواجدي وما علينا فعله.

«وأمر آخر: تحدثنا آنفًا عن تجربة الضحية وتجاهلنا ما تمكنه هذه التجربة. كرد فعل للعداء تجاهنا حولنا الضفة إلى معتقل واحد كبير وقمنا بأفعال تقترب من الجرائم بحق الانسانية وعبرنا هذا الحد أكثر من مرة. كمجتمع، أدخلنا قيمنا المتنورة إلى ثلاجة. غرقنا في غيبوبة أخلاقية. وفي المحصلة أكدنا على أفكار مسبقة لاسامية عن اليهودي الذي يكره الغرباء والمتآمر والعنيف وغير الصادق والامبريالي. يجب أن نوقف كل ذلك. علينا أن نخرج من هذا».

- عاموس عوز، ماذا كانت الصدمة الأكبر بالنسبة لك في السنتين الأخيرتين؟ هل حدث أمر ما هدد منظومتك الحياتية؟

عوز: «أنظر. بعد ثلاثة اسابيع من حرب الأيام الستة تأسست اللجنة للسلام والأمن. فكرة دولتين لشعبين. أنا وآخرون ادعينا إنه إذا سرنا في هذه الطريق التي نعرضها، فإنه سيكون سلام بيننا وبين الفلسطينيين. ادعيت هذا الادعاء لأكثر من ثلاثين سنة. اليوم أنا لاأدعيها بعد. ما زلت أقول إن علينا إقامة دولتين، ولكنني لست متأكدًا من أن هذا سيجلب السلام. في أفضل الحالات، فإن هذا سيجلب السلام، وفي أسوئها سيؤدي بنا إلى إدارة

حرب واحدة نكون فيها صادقين حتى النهاية، بدلا من إدارة حربين نكون غير صادقين في واحدة منهما».

- هذا تغيير جوهري. في الواقع هذا الأمر يعني أن هذه الانتخابات هي الانتخابات الأولى التي لا يعد فيها اليسار بالسلام. انسحاب، وليس سلام.

عوز: «باستطاعتي أن أتحدث عن نفسي: أنا انسحبت من طرف واحد. تراجعت من طرف واحد عن أمر قلته خلال أكثر من ثلاثين سنة، لأنني افترضتُ أنه لو عُرض على الفلسطينيين ما عرض عليهم أيهود باراك في كامب ديفيد، فإنهم سيردون بعرض مقابل. لم أفكر للحظة، وأعترف بذلك، بأن اقتراح حل من دولتين وعاصمتين وإعادة ٩٢ أو ٩٥ أو ٩٦ بالمئة من الأرض ستستخدم كزناد لموجةٍ من الحرب ضدنا. هذا الأمر زعزعني جدًا وبعمق».

- برؤية استرجاعية، أوسلو كان خطأً؟

عوز: «أنا أدعي أن أوسلو لم يحظ بيوم واحد من الرحمة. فورًا، وقبل أن يجف الحبر على الورق، خطط هؤلاء للجهاد ولغسل الدماغ من أجل الجهاد، وهؤلاء خططوا للمستوطنات. لذلك أنا لا أعتقد أن أوسلو فشل، لأن أوسلو لم يُجرّب أبدًا. هذه السفينة لم تُدشن أبدًا.

«أنا لا أقبل أيضًا بأن اليسار لم يستخلص العبر. عندما يقول زعيم حزب «العمل» إنسحابًا أحادي الجانب من المناطق المحتلة المسكونة، فإن هذا تغييراً راديكالياً بالنسبة للمواقف التي سبقت هذه الانتفاضة. من لم يستخلص العبر هو اليمين. ليس منذ أوسلو فقط، وإنما منذ الثلاثينيات. اليمين طيلة هذه السنوات يقول أمرًا واحدًا فقط: إضربوهم بقوة وعندها سيهدأون. لم أسمع أي أمر آخر من أي ناطق باسم اليمين. لم يكن هناك أي جديد عدا: إضربوهم بقوة وعندها سيكون كل شيء حسنًا».

شارون، متسناع، ميرتس، شينوي

- ماذا تفكران عن شارون؟ هل تكرهانه؟

غروسمان: «أنا لا أكرهه. أنا أعتقد أنه شخص يملك منظومة حياة مقلصة جدًا، وفيها تسطيح لمصطلح واحد فقط: القوة. هو يؤمن بأنه يجب تفعيل المزيد والمزيد من القوة. ليس لديه حل آخر، ليست لديه أية مرونة. لذلك، أعتقد أنه يؤدي بإسرائيل إلى مكان خطر

جدًا. القائد الذي يفترض به أن يقودنا إلى المستقبل، يقودنا بشكل دائم إلى الماضي. ما يذهلني هو نجاحه. هذا الشخص نجح في أن يعمل في جو يكاد يكون فراغًا مطلقًا. الحديث عن رئيس حكومة بدون معارضة وبدون ائتلاف ويفعل ما يرغب به».

- كيف تفسر ذلك؟

غروسمان: «ربما تستيقظ لدينا في فترة نحس بها جميعًا أن النظام القديم يتلاشى، رغبة في التمسك بشخص يبث نوعًا ما من الاستمرارية، والعناد، والمثابرة والصلابة. ككاتب أنا لا أود أن أخرج نفسي من الاحاسيس التي يشعر بها اشخاص من اليمين أيضًا. وككاتب أستطيع القول إن أرئيل شارون يبث قوةً حقًا. لديه نوع من القوة. ضع على هذا الشخص طوقًا وسيبدو مثل قيصر روماني. لديه قوة قد تقترب من أن تكون توراتية. في هذه الشخصية، مع الغرائز القوية جدًا ومع الفظاظة ومع التاريخ، هناك شيء ما يسلب ألبابَ الناس على ما يبدو».

عوز: «سأحاول أن أجيب على سؤال شارون، ليس ككاتب وليس كمختص نفساني وإنما كمحلل سياسي. أعتقد أن التعاطف معه ينبع من أنه يستوعب كمن ينتصر على الفلسطينيين دون أن يثير علينا أميركا. وهو يُستوعب كمنتصر لأنه بالفعل حقق انتصارًا: الفلسطينيون يطالبون اليوم بما رفضوه في كامب ديفيد. لذلك يرى فيه الجمهور كمن أرضخ العدو وضربه ضربة قاضية وهيّأ الاكتفاء العاطفي لاحباطاتنا جراء الحافلات والأطفال المهشّمين والديسكوتك والمقهى وليلة الفصح في نتانيا.

«من المكان الذي أجلس فيه، صحيح أنني أرى إنسانًا يشع على كل بيئته ثقة مريحة بالنفس، لكنه لا يعرف إلى أين يمضي. أنا أعتقد أن شارون لا يعرف إلى أين يمضي».

- وفي المقابل، من تقدّران من قيادة اليسار؟ هل هناك مكمّل لرابين وبيريس؟

غروسمان: «الشعور هو بالفراغ. متسناع في نظري شخص يقول الأمور الصحيحة ويتمسك بها، لكنني أخشى من أن يدفع ثمن إفساد حزب «العمل»، في نظري، تحقر حزب «العمل» بعد أن تسخر خلال سنتين ليكون ورقة توت لشارون، من دون أن يشكل وزنًا مضادًا لغرائزه ودوافعه. مقابل ذلك، لدي تعاطف لـ«ميرتس»، وأنا سأصوت لـ«العمل»،

سريد وبيلين هما شخصان يفكران خطوتين إلى الأمام. وهما ينجحان في ألا يكونا شريكين في اليأس والترهل. وهما يتعاليان على مشاعر الخوف والانتقام، المفهومة جدًا. هما ليسا أسيرين في البوتقة المُحكمة حول هذا الوضع العنيف، وليسا مُسببيْن من قبل منطقه الأعوج.،

عوز: «أنا سأصوت «ميرتس» لأن الأمور التي تقولها تبدو لي صحيحة. نعم، مفاوضات تحت النار. نعم، محاولة إضافية أخرى للتحدث مع الفلسطينيين. وإذا لم تنجح المحاولة فعندها إنهاء الاحتلال من طرف واحد. كنت أقترح على «ميرتس»، خاصة لشخص أو اثنين منها، أن يتنازلوا لفترة ما عن التهكم. أن يتنازلوا عن السخرية الكلبية لعشر سنوات. من سيتنازل عن «الحموضية» ويعرض رموزا عقلانية سيحظى بدعمي حتى لو لم أكن واثقًا من أنه يستطيع مواجهة تحديات الساعة الخطيرة»،

– «شينوي»؟

غروسمان: «هذه ظاهرة أصلية جدًا تجذب إليها مشاعر حقيقية. ولكن حقوق الابداع عن هذا الحزب ليست تطومي لبيد وإنما لـ«شاس»، عن طريق كراهية الاشكناز وكراهية العلمانيين خلقت «شاس» هذا المخلوق الاصطناعي ونهايته التصدع. برنامج «شينوي» الانتخابي تافه. التصويت له يبدو لي في نهاية المطاف مضيعةً للصوت».

عوز: «أنا لن أصوت لـ«شينوي» لأنني لست من الذين لا يأبهون لأن يتفجروا في الحافلات، شريطة أن تسير في السبت. هذه الأجندة عند «شينوي» تبدو لي غير صحيحة. هذا يشبه الشخص الذي يأتي إلى وحدة العلاج المكثف خلال عملية تفجيرية، ويجدد الأصص هناك بتلهف كبير. يقلم ويسقي وهذا أمر حسن، لكن لحظة، لقد سفكت الدماء هنا. أنا أيضًا أعتقد أن «شينوي» بُنيت من «شاس» و«شاس» من «شينوي»، وأصلاً، يخيل إلي أن عليهما أن يوقعا على اتفاق فائض أصوات»،

غروسمان: «أريد أن أقترح إسمًا للقائمة المشتركة بينهما: «شيسوي» (الكلمة تعني: تحريض وإثارة– المحرر)».

– إذًا بعد كل شيء، هل لديكما أمل؟ هل تؤمنان بأنه بامكان اليسار أن يتعافى وأن يقود إسرائيل نحو عتيد محتمل؟

عوز: «صديقي جومس، حاييم أورون، يقول إن ما يحدث اليوم في الرأي العام في إسرائيل هو ما يحدث في هزة أرضية كبيرة. عندما تحدث إزاحة فإن السفليين ينزاحون إلى جهة، والعلويين إلى جهة أخرى. في هذه الانتخابات، سيتجه التصويت نحو اليمين، لكن الانزياح العميق الحقيقي سيكون باتجاه مواقف اليسار الأساس. خالتي صونيا قالت لي قبل أسبوع إن غولدا (مئير) كانت ستلقي بشارون من «مباي» بتهمة اليسارية، لو أنه تحدث عندها كما يتحدث اليوم، كما فعلت مع لوبا إلياف. وهذا صحيح. في الصميم، الجمهور الاسرائيلي يجنح لليسار، وليس لليمين.

«أنا قلق جداً مما يفعله شارون الآن: بعد أن دمر السلطة الفلسطينية ها هو يدمر الطبقة الوسطى الفلسطينية. والسلام يُصنع مع الطبقة الوسطى، وليس مع الأصوليين المتدينين، ليس مع فتيان مثوّرين، ليس مع مجتمع مافيوزي. لذلك، أنا قلق من أنه إلى حين انتهائه من مهامه، لن يبقى بالفعل مع من سنصنع السلام. لكنني أومن بقدرة بني البشر على المفاجأة. ربما شارون نفسه سيفاجئ. وإن لم يكن هو، سيكون شخص آخر. لا شك لدي في أن الرجل أو المرأة الذي سينهي الاحتلال الاسرائيلي في المناطق – مع سلام أو بدونه – يمشي معنا وبيننا اليوم. لا أعرف بعد من هو، وهو أيضاً لا يعرف بعد أنه هو، لكنه يمشي بيننا الآن».

غروسمان: «اليوم هناك استعداد عند القيادة الفلسطينية لقبول مسار كلينتون. أنا أقول ذلك من خلال معرفة بالأمر. لكن، إذا لم يكن هناك قائد إسرائيلي ليعرض ذلك، فأنا أخشى من أن المجتمع الفلسطيني سيجنح نحو التطرف و «حماس»، إذا استمرت خصخصة الارهاب فإنها ستتحول إلى كابوس. كابوس فلسطيني، وكابوس إسرائيلي.

«أنا واعٍ: حتى لو حصل سلام مع عرفات فإن الارهاب لن يتوقف تمامًا. الارهاب سيستمر لسنوات كثيرة أخرى إلى أن يخبو في نهاية الأمر، من خلال نسيج الحياة، رويدًا رويدًا. هذا سيحدث بعد الكثير من السنوات، وليس بالضرورة في حياتنا. لكن هذا ليس سببًا لوقف جهود السلام، لأن الارهاب ليس خطرًا وجوديًا على إسرائيل. الفصل والتفكيك الداخليان الناتجان عن الوضع الحالي هما خطر وجودي.

«أريد أن أقول شيئًا آخر. إسرائيل في نظري هي أعجوبة علمانية. الدولة هي وسيلة فقط،

لكن لإسرائيل بعد إضافي. أنا ولدت في العام ١٩٥٤، بعد تسع سنوات من الهولكوست. وأنا أعي وأعيش احتمال أنه ليست لدينا دولة. مع كل الأمور الفظيعة والرهيبة الموجودة هنا ومع كل النقد الذي أوجهه لهذه الدولة، إلا أنني أعرف أنه لو قُدر لي أن أعيش بعد زوال الدولة فإن حياتي ستكون من غير معنى.

«قلتُ صمود للسلام. لكن لدي صمودًا آخرَ. أنا صمود لهذا الشيء الذي أعرفه في أعجوبتنا. في نظري، قامت دولة إسرائيل لئلا نكون ضحايا. لئلا يضربوا جدتي مرةً أخرى في البلدة هناك، في غليتسيا. ولكي نأتي إلى هنا، ونعيش حياة عاديةً، وندافع عن أنفسنا. لذلك أنا متضايق من أنه على الرغم من كوننا أقوياء جدًا، وحتى ونحن نملك ٢٠٠ قنبلة نووية، فإننا نستمر في أن نكون ضحايا لمخاوفنا، للأجزاء المعطوبة من نفسياتنا.

«هذه هي مهمتنا الكبرى: أن نخرج من المخاوف إلى الحياة. أن نقف في مواجهة تاريخنا من دون أن نكون ضحاياه. وأن نهتم بألا تتبذر كل الطاقات على بناء الدرع الذي يحمينا من الخارج. لأن الشعور في هذه اللحظة، أنه لكثرة تركزنا في الدرع، فإنه لم يتبقَ لنا الهواء في البدلة المحصنة. لم يتبقَ إنسان في البدلة المحصنة. وصمودي هو أن يكون إنسان في الداخل. أن تكون الحياة هنا، حياة بشر».

(٦)

برجوازيون بيضٌ فخورون

للضائقة الشرقية هناك ما يكفي من الآباء. الوسط العلماني- الأشكنازي فقط بقي يتيمًا. تومي لبيد يعرض عليه الأبوّة الأوروبية- الغربية الشبعة. من قال عنصرية؟

واحدة من الظواهر المثيرة في معركة إنتخابات ٢٠٠٣ هي تقوقع جزء كبير من الجمهور العلماني- الاشكنازي، في وسط يبحث لنفسه عن تعبير سياسي شرائحي. هذه هي معركة الانتخابات الأولى التي يتصرف فيها العلمانيون الأشكناز بالذات، كطائفة معرفة ومحتمية بحيث تذهب إلى الصناديق في ثلاث قوائم مختلفة، طابعها طائفي: حزب «العمل»، الذي يحوي في الخمسة عشر مرشحًا الأوائل، ثلاثة فقط من غير الأشكناز؛ «ميرتس»، التي تحوي في الأربعة عشر مرشحًا الأوائل، إثنين فقط من اليهود غير الأشكناز؛ و«شينوي»، التي لم تجد في صفوفها ولو شرقيًا واحدًا على الأقل يكون مناسبًا ليوضع ضمن العشرة الأوائل في قائمة المرشحين للكنيست.

*

قبل ثلاثة أيام من البرايمرز المتعرقة في «الليكود»، يمر فندق «شيراتون موريا» في تل أبيب بليلة خاصة: حزب «شينوي» يختار مرشحيه للكنيست. أحد الطوابق وُضعت طاولات للاستعلامات والتسجيل، في الطابق الأوسط مكان التجمع، في طابق القبو منطقة التصويت المغلقة. من وراء ستائر التصويت الزرقاء منطقة تصويت مغلقة. أنظر كم هو جميل هنا، يقول لي تومي (يوسف) لبيد، وهو يستقبلني بمحيا بشوش، ببدلة رمادية وبشعر أبيض مرتب بعناية إلى الخلف. أنظر كم هو جميل هنا، مثل كونسيرت للفلهرمونيكا.

وحقًا، مثل كونسيرت للفلهرمونيكا. نظيف جدًا، مرتب، مُخرج بشكل جيد. أبيض على أزرق. فالمايسترو يوسف لبيد والمايسترو أفرهام بوراز يعرضان الليلة إنتاجًا متكاملا. إنتاجٌ لا يترك مجالا للمفاجآت: تحت قيادة المحامي الشخصي لتومي لبيد ينتخب الحزب الشخصي لتومي لبيد، بنظام متناهٍ وبطرق سليمة جدًا، المرشحين المرغوبين عند لبيد بالضبط. فالليبرالية الاسرائيلية الجديدة تحب لديمقراطيتها أن تكون على هذه الشاكلة: مُدارة جيدًا. وهكذا تحب أيضًا المنافسة الحرة التي تؤمن بها: مُسيطر عليها، مراقبة، مليئة بالمال. ما يشبه المنافسة الحرة على شاكلة مركز أوروبا. منافسة حرة في دائرة برجوازية مغلقة.

الجمهور أيضًا هو جمهور الفيلهرمونيكا. محامون ومدققو حسابات وأطباء أسنان، ينزلون ويصعدون الأدراج، ببدلات زرقاء وأزرار «شينوي» بيضاء معلقة على جيبة الجاكيت. حتى الشباب صُفر الشعر من حزب المركز هذا يبدون مرتبين ومهذبين جدًا، ويلبسون البلوزات البيضاء. كلهم تقريبًا حليقو الذقون، وكلهم تقريبًا صافو النظر، يبثون رائحة مريحة كأبناء الذوات. كمواطني المستقبل الأوفياء والمطيعين. وعندما يمر تومي لبيد بينهم، يرافقه حارس شخصي، يأتي إليّ ثانيةً. أليس مثيرًا للانطباع؟ يسال. طبعًا مثير للانطباع. مثل صيدلية جميلة.

هل توجد هنا مشكلة؟ هل هناك ما هو عنصري في «شينوي»؟ تومي لبيد يضحك ويجيب بالنفي. ليس من الممكن. فحتى جيل السابعة عشرة لم يعرف هو بنفسه ما إذا كان «سفارادي» أم «أشكنازي»، فهو بنفسه أعمى الألوان بشكل مطلق. ولماذا يقولون عنه إنه عنصري؟ لأنه

ضد «شاس»، والذي أوجد العنصرية السياسية الاسرائيلية هم «شاس»، و«شاس» هو حزب أساسه عنصري، وليس «شينوي»، ولكن لأنهم خلقوا حزبًا عنصريًا، يقول بلفظه الثقيل، فأنت تُعد عنصريًا إذا خرجت ضدهم.

وداخل «شينوي» نفسها؟ لماذا تمثيل الشرقيين في «شينوي» قليل إلى هذا الحد؟ بحسب لبيد فإن كل الموضوع ينبع من أن «طشينوي» هي حزب للطبقة الوسطى المتعلمة. وللأسف الشديد، فلا تمثيل كافياً للشرقيين في هذه الطبقة. ولكن له شخصيًا كان من المهم بالذات أن يكون شرقي في القائمة. هذا ما قاله بوضوح للأعضاء: يجب أن تكون في القائمة ثلاث نساء وشرقي. والأعضاء قالوا حقًا إنهم بعد أن انتهوا من إنتخاب العشرة الأوائل الخالين من الشرقيين، تنقل لبيد من عضو إلى عضو ليضمن انتخاب أيهود رتسابي. ومع أن الأمر لم يكن سهلا، وكانت معركة صعبة، إلى أن رتسابي دخل في النهاية. وفي نهاية الأمر حصلت «شينوي» على مرشح غير أشكنازي في المكان الحادي عشر. لـ«شينوي» في المكان الحادي عشر مدقق حسابات ميسور، ويمني صافٍ.

ولكن هناك بعض الأعضاء في مجلس «شينوي» يعتقدون أن هناك مشكلة، على الرغم من ذلك. طومي لا يعي ذلك، يقول واحد منهم، لكن فيه شيء من الوصاية البيضاء. عنصريته غير واعية لنفسها وغير موجهة، ولكنها غير مسيطر عليها أيضاً؛ وفي كل مرة يتحدثون عن «ديمقراطية ليبرالية»، يضيف لبيد «أوروبية» أيضًا، ديمقراطية ليبرالية أوروبية، من دون أن يصغي لما يقوله. من دون أن يفهم كيف تُسمع أقواله. «لا شك في أن تومي لا يحب الشرقيين بشكل شخصي»، يقول ذات العضو. «هو لا يحب العرب ولا يحب الشرقيين. كل موضوع الشرق غريب عنه وينفّره. لكنه يستعلي على الشرقيين من دون نوايا سيئة ومن دون وعي ذاتي. هو عنصري بنية طيبة».

وسكان الضواحي؟ الفقراء؟ سكان طبقات الضائقة؟ في «شينوي» لا يعتقدون أنهم يشكلون مشكلة ما. في «شينوي» يعتقدون أن الضائقة ممثلة في الكنيست بما يكفي ويزيد. لذلك فإن «شينوي» تعرّف نفسها -للمرة الأولى في إسرائيل- كحزب طبقي خالص. ليس عنصريًا، بل طبقي. ومن أجل عمعمة الشعور السيء الذي خلفته حملة الكراهية ضد الحريديم،

في معركة الانتخابات في الـ ١٩٩٩ ، بقليل، توضح «شينوي» الآن، في وضح النهار، بروفيلها الاجتصادي: حزب البرجوازيين. حزب البرجوازيين الفخورين.

يشكل جمهور الهدف عند «شينوي» نصف مليون إسرائيلي، يحملون الدولة على أكتافهم، كما يقول لبيد. دافعو الضرائب، خادمو الاحتياط، الذين يرغبون بأن تكون إسرائيل حديثة، متقننة وأوروبية. الذين يسرقهم الحريديم. الذين ملوا من تمويل المرتزقة على أنواعهم: طلاب اليشيفوت، البطالون، كثيرو الأولاد.

لا يوجد أي مرشح من المرشحين الـ ١٨ الأوائل في قائمة «شينوي» للكنيست، أي واحد يسكن خارج مثلث التخمة المؤلف من القدس- منطقة دان- حيفا. ثمانية منهم محامون، ثلاثة أربعة من رجال الأعمال، صحافي واحد معروف. وعدا عن الاهتمام بتمثيل الروس والجامعيين، لا تهتم «شينوي» أبدًا بأمور ما تبقى من الذين خرب عالمهم. بصراحة وبتظاهرية، تعرّف نفسها كحزب الشبعانين الاسرائيليين. الذين يرفعون ظهورهم الآن ويرفعون رؤوسهم وينتفضون على فقراء البلاد. الذين يحذرون الآن من الحريديم ويحذرون من الشرقيين ويحذرون من مستحقي التخصيصات: دعونا نعيش في هذه البلاد.

لبيد بنفسه إنسان شبع أيضاً. إلى حين وصوله إلى استوديو «بوبوليتيكا» في العام ١٩٩٣، كان عطاؤه الأكبر للحياة الاسرائيلية كتابته عن الطعام (مع روت سركيس في نهاية الستينيات) وكتابته عن السياحة إلى أوروبا (دليل لبيد كان أكثر الكتب مبيعًا في السبعينيات). حبه لأوروبا غيور جدًا وأيديولوجي. هذه الإنطلاقة تشكّل نقطة التقاطع المثيرة بينه وبين الشباب في سنوات الألفين.

الاستسلام لملذات الحياة، التحفظ من كل ما هو ديني، النفور من الشرق والنظر إلى الغرب، حولوا هذا اليهودي الصربي- الهنغاري، إبن الـ ٧١، إلى أكثر سياسي مقبول اليوم على شباب إسرائيل. هناك ما هو جذاب جدًا للاسرائيليين الذين يعيشون في الأزمة الكبيرة الحالية، في البعد الذي يبثه لبيد تجاه كل ما هو عربي ويهودي. ومنطقه السليم لا يضر أبدًا. ويقظته، وذكاؤه، وانفتاحه للجديد. والتصميم الشديد على المصلحة الذاتية.

ولكن لبيد شبعٌ جدًا من مفهوم واحد. فبكونه ليبراليًا إسرائيليًا، كان له القسط المركزي

في بناء كارتل الكوابل المحلي خلال سنوات الخصخصة السعيدة. وحين شغل منصب رئيس إتحاد الكوابل، قاد عملية توحيد (٣٢) شركة صغيرة (كان من المفروض أن تلجم الواحدة الأخرى)، في كتلة إقتصادية مركزية واحدة. وخلال ذلك إغتنى. وزوجه السياسي، أفرهام بوراز، كان من مصممي المبنى الحالي، المركزي، لسوق الاتصالات في إسرائيل.

وهكذا، على الرغم من أن لبيد يدعي أن حزبه لا يمثّل الرأسمال الكبير، وإنما الطبقة الوسطى، فإن رصيد الحزب في الكنيست هو قاطع: في ذات الوقت الذي تعارك فيه «شينوي» عمال شركة الكهرباء بضراوة، فإنها دافعت باستماتة عن مصالح قباطنة الاعلام الكبار. في ذات الوقت الذي ادعت فيه «شينوي» أن دفع مخصصات تلاميذ التوراة يفرغ خزنة الدولة، فإنها وقفت جانبًا عندما مررت البنوك الكبيرة، التي تتحكم الدولة بقسم منها، مليارات الشيكلات إلى مجموعات من المقربين، غالبيتهم من الأشكناز العلمانيين. وفي ذات الوقت الذي حاربت فيه «شينوي» بشراسة، تهرب الحريديم من الخدمة في الجيش، فإنها لم تنبس ببنت شفة بخصوص الظاهرة الآخذة في التوسع، بالتهرب الملحوظ من الجيش في «رمات هشارون» وشمال تل أبيب.

عندما يستقبل صحافيًا من «هآرتس» في صالون بيته، فإن تومي لبيد يكون أديبًا إلى ابعد الحدود. عيناه الزرقاوان ناعمتان، وجهه المشبع مرتاح، ترخيمة صوته دافئة ومريحة. لا يقاطع، لا يستعلي، لا يطلق النار. يتحدث كبرجوازي إلى برجوازي. كأوروبي إلى أوروبي. كحليف إلى حليف.

والده، د. بيلا ليمفيل، كان حليفًا في مدينة نوبيساد الصربية- الهنغارية. كان محاميًا، ومحرر جردية، وصاحب فيللا كبيرة ورئيس المكتب المحلي الخاص ب «بني بريت» (الحلفاء). في ليلة ١٨-١٩ آذار العام ١٩٤٤ طرق الغستابو الباب. الطفل تومي، في الثانية عشرة، الذي كان نائمًا في تلك الليلة في سرير والده، اختبأ تحت الأغطية وبكى بحرارة. اقترب والده منه واحتضنه وقبله وقال له، ربما سأراك وربما لن أراك، حافظ على نفسك. منذ تلك اللحظة لم يرَه. ولكن القصيدة التي كتبها د. ليمفيل لإبنه في عيد ميلاده السادس، ما زالت محفوظة في غرفة العمل في تل أبيب. بُنيّ الصغير ،اسم القصيدة. بُنيّ الصغير، لا تدعهم.

الدمعة لا تساعد، والبسمة أيضًا لا تسوى الكثير. إذا مسوا بك فأغلق قبضتك واضربهم بقوة. لا تدعهم.

منذ أن كان صبيًا فهو لا يدعهم. منذ أن كان ولدًا في نوبيساد كان قويًا وذكيًا، ولدًا مدللاً وقبضاي. وفي مفرقين ثلاثة مصيرية في سنة ١٩٤٤ اختار الصواب ولم يدع النازيين يقتلونه. وفي مفرقين ثلاثة مصيرية في العقد التالي اختار الصواب ولم يدع إسرائيل البلشفية أن تمعسه. بأصابعه العشرة، ولغاته الأربع، وبمخزون الثقافة الذي جلبه معه من بيت عائلته الميسورة، شقّ طريقه من الـ«دي دي تي» في ميناء حيفا، إلى قلب «معاريف»، خدم ككهربائي سيارات في الجيش، أتم امتحانات «البجروت» (الامتحانات الموازية للتوجيهي- المحرر) الخارجية بظروف غير طبيعية، عمل فترة ما في جريدة بالهنغارية إسمها «أويكلط» وتدرج إلى منصب السكرتير الشخصي للدكتور عزريئيل كارليباخ، محرر «معاريف»، وخلال ذلك درس الحقوق في المساء، ليعود ويصبح ما كانه والده: صحافي ومحامٍ.

ربما كان هذا السبب من وراء كراهية لبيد للضعفاء والبكائين. ليست لديه قطرة صبر واحدة تجاه المشفقين على أنفسهم. وهو يتحدث مرارًا وتكرارًا عن المهاجرين من يوغوسلافيا الذين لم يطوروا أبدًا أية مرارة ولم يطوروا ثقافة من الفقر ولم يعتقدوا أنهم يستحقون. على خلاف الآخرين، يقول. من مثلا؟ قسم من الجيل الثاني للمهاجرين من المغرب، مثلا.

من دون تردد يعرف نفسه على أنه «تاتشريّ»، رأسمالي. رجل السوق الحرة والاقتصاد العالمي. هو يكره الاشتراكية بما لا يقل عن كراهية الحريديم. لا، هو لا يشبه آرتشي بانكر حقًا (بانكر هو شخصية تلفزيونية أميركية شهيرة جدًا، رمزت للأميركي البرجوازي، الشبع، الشوفيني والمعتد بنفسه وبرأسماليته- المحرر). ثقافته أكبر، متعلم، أوروبي. وبمفهوم معين حساس فعلا لحقوق الفرد ولكرامة الانسان. لكن لبيد يملك من «القصة» الأميركية شيئًا: العصامية (سيلف ميْد)، الرجل الصعب الذي لا يملك الصبر الزائد لمن لم ينجحوا مثله. طفولة صعبة ليست تبريرًا لشيء، يعترض. وله، لم تكن طفولة سيئة؟ ما مرّ عليه في غيتو بودابست ليس طفولة صعبة؟ وها هو على الرغم من ذلك هنا. يجلس في غرفة السيد خاصته في تل أبيب، تمامًا كما جلس والده في غرفة السيد في نوبيساد. وفي أعماق أعماق

الاستقرار. في عمق النظام البرجوازي.

وفيما يلي المواقف: يجب صياغة دستور بعد الانتخابات فورًا، يجب إلغاء قانون طال (الذي يتيح إعفاء المتدينين من الخدمة في الجيش- المحرر)، وإجراء إصلاحات ضريبية تقلل من العبء الضريبي عن الأعشار العلوية، وتضيف إلى دائرة دافعي الضرائب أعشار الطبقة الوسطى الصغيرة. والخصخصة طبعًا، وإلغاء وزارة الأديان، وأخذ المليارات من الحريديم. وعلى المدى البعيد، لن يكون مفرٌّ من إخلاء حوالي مئة مستوطنة صغيرة، كما لن يكون مفرٌّ من ضم مناطق الاستيطان الكبيرة إلى إسرائيل. ولكن ليس الآن، ليس في الوقت الذي تندلع فيه النيران. يجب وقف العنف أولا، وبعد ذلك سنرى. فينتج أن لا حل حاليًا. هو السياسي الوحيد الذي يتجرأ على قولها علانية: لا حل. وفي الحكومة التي يأمل أن يكون شريكًا فيها، جنبًا إلى جنب مع شارون ومتسناع، عليه أن ينشط باعتدال. أن يمتنع عن التطرف بكل أشكاله. وأن يفهم أن هناك تهديدان وجوديان على إسرائيل: التهديد العام الفوضوي، وتهديد الحريديم. ولا، هذا ليس صحيحًا أنه يكرههم. وكلمة «يحتقرهم» هي كلمة حادة أكثر من اللازم. لكن هذا صحيح أنه غاضب عليهم. ويعرض عليّ أن أغضب انا أيضًا. وهذا صحيح أنه يخاف منهم جدًا. ويعرض عليّ أن أخاف أنا أيضًا. لأنهم قد يسببون دمار هذه الدولة، التي يحبها جدًا. بامكانهم أن يحوّلوها إلى ما يشبه المدرسة الدينية، وبالتالي، أن يجعلوها كريهةً في عيني حفيده يوآف.

ولذلك، عندما يتأمل حفيده فإنه يشعر بالقلق. من جهة يخاف أن يتربص العرب بيوآف، ومن جهة ثانية يخاف من أن يسرقه الحريديم. فبما أن لبيد نفسه يعيل لوحده أب الحاخام آيخلير، وإبنه يئير يعيل أخ آيخلير، فإن حفيده يوآف سيضطر لإعالة آيخليرات صغيرة مضاعفة. وهذا لن ينفع. لن ينفع. هذا سيغرق كل المشروع الصهيوني.

بعد ساعة يدعوني للمطبخ لتناول شيء ما. ينحني أمام الثلاجة ويُخرج صحن سجق الخنزير الذي قطعته زوجته، شولا، والجبنة الهنغارية التي حضّرتها شولا ولحم العجل الطري الذي قلته شولا. ويروي لي عن ذلك العالم المفقود. كم كانت غنية تلك البلاد. كم كانت أطعمتها غنية تلك البلاد. كم كان اليهود الذين ربا وسطهم، أغنياء في تلك البلاد. خادمات

يخرجن وخادمات يدخلن. وجبات يوم الأحد كانت تستمر لساعات. وعن الخبز الطري الذي كان يجلبه العم شندور من المخبز في الفجر، حدث ولا حرج. كبد الإوز الذي كان يُقدم على طاولة خشبية ثقيلة. قطع من لحم الخنزير، تزن كل واحدة عشرين كيلو، معلقة على مسمار في المخزن. والطباخة، والمسادة، والخادمة. هيبة أبيه وجمال أمه أزرق العينين. والاستقرار، والأمن. الشعور بأنك صاحب بيت. ذلك الشعور المُسكر والضائع بأن تكون حقًا صاحب بيت.

الاندماج كان شبه مطلق، وكان هناك نفور من كل ما هو ظلامي أو ديني أو فقير. وبأكثر ما يمكن من الطبيعية، كانت عيونهم موجهة إلى فينا. فحتى اليوم، عندما يهبط في مدينة مركز- أوروبية مثل زيوريخ، يشعر بأنه في البيت، بشكل يهزه من الأعماق. أبراج الكنائس، الأجسر على الأنهر، الأزقة المرصوفة بالحجارة. والأصص على الشبابيك، النظام الجيد، الهدوء. مقابل ذلك، تثير فيه القدس اضطرابًا. هو يشعر بالغربة في القدس. عندما كان المدير العام لسلطة البث لم يكن يستطيع قضاء ليلة واحدة فيها: كان يعود كل مساء للنوم في سريره في شارع ليسل. ففي تل ابيب نشأ، مع كل ما يمكن قوله، أمر ما شبه أوروبي. وبعد الصدمة الأولى في الوصول إلى بلاد فقيرة، نشأت المطاعم من حوله، على الرغم من كل شيء. وفُتحت المقاهي، وبعد ذلك الحانات. ورويدًا رويدًا بدأت معايير البرجوازية الاسرائيلية بالاقتراب من معايير البرجوازية الأوروبية. فهناك الآن عدد غير قليل من الذين «يقفزون» لتناول العشاء في روما.

أصعب لحظة بالنسبة له كانت عشية حرب «الأيام الستة»، فجأة كان هناك شعور بأن كل ما بنيناه هنا على كف عفريت. كل ما حققناه هنا في خطر. وكان ما يشبه الحزن الكبير في الجو. كان شعور بأن القدر يحلق من فوقنا ونحن سنُباد ثانيةً.

ويذكر لبيد بشكل خاص المكالمة الهاتفية التي وصلت من الأقارب في بودابست، في فترة الاستنفار. على الأقل إبعثوا الأولاد، طلبوا. فالأولاد غير مطلوبين للمجهود الحربي. المرحومة ميخال كانت آنذاك في السابعة، ويئير في الرابعة. لكن إرسال الأولاد بالنسبة له، كانت شيفرة. لأن هذا ما عندها، هناك. هكذا أنقذت أمه حياتَه. وهو يذكر تلك اللحظة بالضبط:

كيف أتى إلى شولا وقال لها، أنا لن أهرب أكثر. لن أصبح لاجئًا مرةً أخرى. هنا محطتي الأخيرة ومحطة أولادي الأخيرة: هم سيعيشون هنا، وسيموتون هنا.

بعد ذلك على الفور، اندلعت الحرب. وأنا، يقول لبيد، أنا اليهودي العلماني الكلي بكيتُ بكاء يمزق القلب عندما سمعت صوت النفير التي أطلقها الحاخام غورن إلى جانب الحائط (حائط المبكى- المحرر). بعد هذا التهديد الفظيع، شعرت فجأة بالتحرر الكبير. في لحظة واحدة، قربني صوت النفير إلى الشعب اليهودي. وبما يشبه القفزة عن ألفي سنة، تقربتُ من شعبي. ولذلك، آمنتُ بعد ذلك بأرض إسرائيل الكبرى. اعتقدتُ بأننا نستحق ذلك. فكرتُ أنه يحق لنا أن نحقق ذلك بشكل تام.

بعد مرور عشرين سنة بدأ بالتحرك يسارًا. فهم أن الخطر الديمغرافي أكبر من الخطر الجغرافي، وفهم أنه من غير الممكن إقامة مجتمع ديمقراطي- ليبرالي من خلال قمع شعب آخر. وفهم أيضًا أنه أخطأ في موضوع المستوطنات. لذلك دعم أوسلو وهو لا يعتقد اليوم أيضًا أن أوسلو كان خطأً. لأن أوسلو يمنحنا التبرير الكامل لنحارب اليوم، كما نحارب. لكنه لا ينجح، في أي شكل من الأشكال، بتجنيد أية سخرية من داخله، تجاه الصهيونية. هو ما يشبه الصهيوني الأساسي. جندي عبري ما زال حمل السلاح يثير انفعاله. ما زال كل موضوع دولة إسرائيل يبدو له أعجوبة. وبشكل شخصي، هو شاكر جدًا: الدولة أحسنت إليه، أحسنت إليه جدًا. لا ينسى ذلك، ولو للحظة واحدة.

كُلْ شيئًا، يقول لبيد. لم تأكل شيئًا. وبفم مليء، يجيب على الهاتف كعادته -«تومي» ويعتذر أمامي: هو ينتظر مكالمة مفترضة من رئيس الحكومة، إلا أن المكالمة لم تأتِ بعد. ومع ذلك فهو متأكد من أنه لا مفر أمام شارون، بعد الانتخابات. سيضطر شارون بعد الانتخابات، لإقامة حكومة ليكود- عمل- شينوي. هذه مناسبة خاصة جدًا، يقول لبيد. هذه ستكون المرة الأولى التي يمكن أن تتحقق فيها الثورة العلمانية. لأن الناس ملّوا حقًا والناس يفهمون أنه لا يمكن عمل شيء في موضوع الفلسطينيين الآن، ولذلك، على الأقل، دعونا نعالج موضوع الحريديم. فإذا لم نكبحهم الآن، فسيكون فعل ذلك متأخرًا بعد قليل. إسرائيل لن تصمد مع (٣٨٠٠٠) متنصلٍ من الخدمة ومع (١٠٠٠٠٠) متنصلٍ من العمل. وثقافة

الفقر التي طوروها، والطفيلية التي طوروها. والفقر والجهل اللذان يحيطون أنفسهم بهما.

فما السر إذًا؟ ما الذي يبعث على نجاح قائمة الشخص الخاصة بلبيد، على النجاح، في الوقت الذي فشلت فيه قائمة الشخص الخاصة بموشيه ديان وأرئيل شارون؟ وما الذي جعل هذا الصحافي العجوز، صاحب الوجه البافاريّ، أن يصبح النجم السياسي الاسرائيلي الأكبر؟ ما الذي في طوميسلاف ليمبل، ليلائم الروح السائدة الحالية الاسرائيلية، روح الزمن الحالي، عشية ٢٠٠٣؟

يقول صديق مقرب إن التفسير كائن في أن لبيد هو في الواقع هرتسليّ جدًا. يهودي من فينا مندمج جدًا (اليهود يتطلعون إلى إندماج اليهود الآخرين في المجتمعات الأخرى، بمنظار سلبي، كدلالة على فقدان الهوية اليهودية- المحرر) مثل هرتسل، ويكره الرابانيم مثل هرتسل. علماني حريص يؤمن بأن الله هو مرض نفساني، وغربي غيور يعتقد أن كل من يقف في طريق الحداثة الأوروبية هو لاغٍ. ولأجل ذلك، فهو لا يهتم بمسعودة من سدروت («مسعودة» هي كناية إسرائيلية عن المواطنة الاسرائيلية البسيطة، الشرقية، ما يسمى عامة الشعب- المحرر). الصليب الذي يحمله هو صليب الدفاع عن الغربانية. صليب إنقاذ البعد الغربي، الآخذ في الاختفاء من حياتنا.

وموقف هذا الأبوقراطي من نوبيساد تجاه اليهودية، يقول الصديق نفسه، يشبه جدًا موقف خريجي جهاز التعليم الاسرائيلي. هو وهم لا يفهمون حقًا كل هذه المسألة اليهودية. لكن هناك ما يشبه الشعور القوي جدًا بالهوية الوطنية، عنده وعندهم، التي تقف الآن على رجليها الخلفيتين.

أنا أفكر كثيرًا في ترانسيلفانيا، يقول لي لبيد وأنا على وشك الخروج. خلال مئات السنوات تنتقل من أيدي الهنغاريين إلى الرومانيين ومن أيدي الرومانيين إلى الهنغاريين بوتيرة، مرة كل نصف قرن. بحيث يمكن القول إن هذا فظيع. أن لا حل لهذا. لكن في الوقت الحالي، تُولد أجيال وتتزوج وترقص. إذًا لا يوجد حل، صحيح، لكن الناس تعيش، حاليًا.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنت قلق إلى هذا الحد، أسأله. «لأننا موجودون في بيئة شرق أوسطية فاسدة، كسولة ومتخلفة» يجيب لبيد. «ما يمنعنا من الغرق هو اختلافاتنا

الثقافية. حقيقة أننا في مقدمة الحضارة الغربية هنا. ولكن، لو تآكلت غربانيتنا فلن يكون لنا أي احتمال. إذا تركنا الغيتو الشرق أوروبي والغيتو الشمال أفريقي يسيطران علينا، فلن نجد عندها ما يعيننا على الطوفان. سنندمج عندها في الفضاء السامي وسنضيع في وسط مزبلة شرقية فظيعة».

(٧)

بعد ثلاثين سنة

موطي أشكنازي مقتنع بأن تلك الأيام تعود على نفسها، بأن «يوم الغفران» الجديد صار هنا. لكن في هذه المرة، حتى هو عاجز. لقاء تشاؤمي عن المعركة الانتخابية الغريبة للعام ٢٠٠٣.

في نصف السنة الأخيرة انتهى موطي أشكنازي من تأليف كتاب. «إنسان وحيد وقف في الباب» إسمه. وهو يصف الشهور السبعة التي تلت خروجه لخدمة الاحتياط في معسكر «بودابست» في الثالث والعشرين من أيلول للعام ١٩٧٣، وحتى سقوط حكومة غولدا مئير في نيسان ١٩٧٤: في البداية العلائم النذيرة بالسوء. بعدها السوء نفسه (من سبعين جنديًا كانوا تحت إمرة أشكنازي، وقع ثلاثون في الأسر وقُتل ثلاثون آخرون). بعد ذلك محاولة محاسبة المسؤولين عن هذا السوء. وذلك الخروج الصامت إلى ذلك الشتاء القارص، للوقوف وحيدًا مقابل مكتب رئيس الحكومة. الوقوف مع سبعة آلاف، الوقوف مع عشرين ألفًا مقابل مكتب رئيس الحكومة. رؤية قلعة الصمم التي بها الحكومة، تسقط.

خلال تأليف الكتاب أقام أيضاً موطي أشكنازي حزبًا . «لهافاه» إسم الحزب . من أجل التساوي في الفرص في المجتمع الاسرائيلي . وقد أقام أشكنازي الحزب ، لأن مشاعر الذنب ما زالت تعذبه حتى اليوم ، لأنه لم يقم بشيء قبل سنتين من تلك الحرب . رأى ما هو موشك على الحدوث ولم يفعل شيئًا . والآن ، يؤمن ، الآن تعود الأمور على نفسها . وكما كانت غولدا مئير وقتها ، أم الأمة الكبيرة التي نامت الأمة في حضنها ، فإن أرئيل شارون هو كذلك اليوم : أب الأمة الكبير الذي تنعس الأمة بين ذراعيه . وكما أن اليسار واليمين لم يفهما المعركة عندها ، فإنهما لا يفهمانها الآن أيضاً : اليمين واليسار غارقان في ثقافة الكذب ، بخطاب التفاهات . وكما أن الفساد تفشى وقتها في كل شيء ، فإن هذا ما يحصل اليوم . والتفكك الاجتماعي ، والانهيار القيمي . الدولة بأكملها تشبه الكائن العضوي الخاضع لصدمة قوية ، فقدت تصرفاته أي معنى . أصبحت ردات فعله غير لائقة . وبسبب الصدمة ، فإن هذا الكائن فاقد الصلة بالواقع الآخذ في التشكل من حوله ، تمامًا . هذا الواقع الذي يضيق عليه شيئًا فشيئًا .

لا ، موطي أشكنازي لا يعتقد أن «يوم غفران» جديدًا على الأبواب . هو يعتقد أن «يوم الغفران» الجديد صار هنا . العملية في أوجها . وفي الوقت الذي يتسلق فيه ليلا ، بمعيّتي ، صوب مكتب رئيس الحكومة ، الذي يلفه ثانية ضباب شتوي ، فإن موطي أشكنازي يقول : نحن ننزف . نحن غارقون حتى العنق في حرب إستنزاف بلا هدف . والمؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية عالقتان ثانيةً في أنماط تفكير متحجرة . في نهج تصرفات عنيف . لا تفهمان مطلقًا أن قدرة إسرائيل على البقاء غير متعلقة بحدودها وبحجم جيشها ، وإنما بقدرتها على الرد بسرعة على التغييرات وبقدرتها على الحفاظ على ضرورة النمو وبقدرتها على الحفاظ على التكاتف الداخلي . ومركبات القوة الثلاثة هذه ، آخذة في التآكل ، في حرب الاستنزاف هذه . هذه المركبات الثلاثة آخذة في الذوبان أمام أعيننا .

في المقابل ، يدّعي أشكنازي ، نحن ماضون في التورط في دائرة تصعيد عنيفة ، ستؤدي إلى تطور ديناميكية مشابهة لتلك التي تطورت بين بريطانيا وألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، وذلك في وقت قصير . مثلما أدى قصف لندن وكوبنتري في نهاية المطاف إلى

قصف درزدن وهامبورغ. مثلما أدت مجزرة بحق المواطنين في طرف واحد إلى مجزرة جماعية بحق المواطنين في الطرف الثاني. وفي حالة استمر الجمهور في البلاد في جلوسه على مؤخرته مغسول الدماغ، وفي حالة استمر الجمهور في البلاد في السعي وراء زعمائه كرهط من المخدرين، فإن ما سيحدث في السنوات القريبة هو فقدان الكوابح في موضوع إستخدام الأسلحة غير التقليدية. ففي حالة تَمكّن الطرف الثاني من تنفيذ عملية كبيرة أو استخدام سلاح غير تقليدي، يقول موطي أشكنازي، فلن يكون بعيدًا اليوم الذي ستنتقل إسرائيل أيضًا إلى استخدام الأسلحة غير التقليدية. يجب أن يكون هذا واضحًا لكل واحد، يقول، نحن ماضون إلى هناك. نحن نتدحرج إلى هناك. وإذا لم نوقف هذه العملية، إذا لم نجتث العنف في ذروته، فهكذا ستكون طبيعة «يوم الغفران» الجديد، الآخذ في التشكل من حولنا.

بموازاة «يوم الغفران» الأمني، يدعي أشكنازي، فإن إسرائيل تواجه أيضًا «يوم غفران» إقتصاديًا- إجتماعيًا. المعطى الذي يردده مرارًا وتكرارًا، من أجل إثبات ذلك، هو فعلا معطى مذهل: في سنة ١٩٩٢ كانت النسبة بين مدخولات الشريحة المئوية العليا في إسرائيل وبين مدخولات الشريحة المئوية الوسطى: ١ :١٦. كانت هذه النسبة مرتفعة جدًا وعكست هوة إجتماعية داخلية أكبر من كل دول أوروبا الغربية. ولكن في العام ٢٠٠٢ وصلت هذه النسبة إلى ١ :٧٥. هذه النسبة تعكس هوة إجتماعية داخلية لدولة «عالم ثالث»، في أقل من عقد تحولت إسرائيل من دولة مبناها الاجتصادي مشابه لأميركا، إلى دولة يشابه مبناها الاجتصادي نيجيريا.

كيف حدث ذلك؟ أشكنازي يعتمد على المنظومة الحياتية الخاصة بحائز جائزة النوبل، جوزيف شطيغليتس، وعلى أبحاث الاقتصادية إستر ألكسندر، من أجل أن يدّعي أن سياسة الخصخصة، اللبرالية والكبح المالي التي سُيّرت في إسرائيل في التسعينيات، كانت سياسة هدّامة أوقفت النمو، وقوّت من البطالة وهرّبت رؤوس المال. وبحسب إدعائه، فإن الغباء الاقتصادي الاسرائيلي أخطر من الغباء الاستراتيجي. ولكن هذا الغباء ليس وليد الصدفة. فهو معدٌ لخدمة مجموعة صغيرة من أصحاب الرساميل الذين لا

ينحصر تحكمهم في الاقتصاد الاسرائيلي فحسب، بل يتعداه إلى السياسة والاعلام. طبقة اللصوص، يسميهم أشكنازي. طبقة البارونات- اللصوص الاسرائيليين، الذين على خلاف سابقيهم الأميركيين، لم يقيموا تقريبًا أية صناعات جديدة ولم يؤسسوا ممتلكات جديدة، وإنما وببساطة، إستولوْا على ممتلكات وعلى صناعات أقامتها الدولة والهستدروت.

نشأت في البلاد نخبة جديدة، يدعي أشكنازي، التي افتقرت لأية مسؤولية، على خلاف المؤسسة القديمة من حزب «العمل»، هذه نخبة لا تستخدم قوتها من أجل البناء، وإنما من أجل السرقة. ولأنها مبنية من شبكة مكتظة من أصحاب البنوك وأصحاب الرساميل وأصحاب السيطرة في الاعلام، فليس هناك من يقف في وجهها. وكل الجهاز السياسي يخدم هذه النخبة. شارون ومتسناع أيضًا ولبيد هم أتباع هذه النخبة. غالبية وسائل الاعلام هي بوق لهذه النخبة. والموظفون الحكوميون والنخب المهنية لا تقوى إلا على خدمة مصالحها. وهكذا نشأ وضع يدفع فيه أصحاب الرساميل الكبيرة حوالي ٢٥٪ كضرائب، بينما تدفع الطبقة الوسطى حوالي ٦٠٪ كضرائب. من جهة واحدة، يضطر عدد متزايد من الناس للبحث عن طعامه في القمامة، ومن جهة ثانية، ترحل عائلات الرساميل من البلاد مع الأموال التي جمعوها هنا. والدولة كدولة، تفقد كل رؤيا، كل إحساس بالعدل، كل حساسية إنسانية. الدولة كدولة تفقد قدرتها على التصرف كجسم مستقل وبالغ يُسيّره نظام من القيم المشتركة، ويمكّن مواطنيه من العيش عيشة سويةً.

لم يكن لدى موطي أشكنازي أي أمل في معركة الانتخابات هذه. بعشرة الكنيست الـ ١٥ المفاجئة فاجأ الـ«ستارت أب» (كناية لشركات التقنيات العالية التي كانت تقوم في إسرائيل بكثرة، في فترة «الهاي تك» في نهاية التسعينيات- المحرر) السياسي الذي أقامه، معدوم الجاهزية مطلقًا. ولذلك اضطر للانضمام إلى مجموعة من التنظيمات الاجتماعية، وأن يرضى بالمكان الثالث في القائمة المرتجلة، وأن يدير حملة إنتخابية غريبة جدًا. حتى عندما وقف في نهاية أسبوع ماطرة مقابل مكتب رئيس الحكومة، في

داخل خيمة إحتجاجية خضراء، مطبوعة عليها أحرف «لهفاه» حمراء، القليلون فقط جاءوا: الاعلام سخر، الجمهور لم يُبدِ الاهتمام. من دون موارد ومن دون نواة قوة ذات حد أدنى، لم يخترق أشكنازي أبدًا الوعي الجماهيري. وسويةً مع حليفه، حاييم آسا، أدار لوحده حملته الدونكيشوتية، الأكثر حزنًا في معركة ٢٠٠٣.

ولكن بمفهوم معين، يمكن أن تكون هذه حملة أشكنازي معدومة الصدى والتأثير، هي التي تمنح نقطة الارتكاز الصحيحة لفهم هذه المعركة الانتخابية الغريبة. وعندما يقف هذا الاسرائيلي المحتج مقابل مكتب رئيس حكومة مغلق في ليلة ضبابية، ويروي عن القشعريرة التي تملكته عندما كتب كتابه في الأشهر الأخيرة، وهو ينظر من حوله، فإن القشعريرة تتملك السامع أيضًا. فالكل كان متوقعًا جدًا. واضحًا جدًا. ومع ذلك، فإن العجز كان مطلقًا. وقبل الحرب بسنتين، كتب مقالا محذرًا لمجلة «معرخوت» ورُفض. وبعث بمقال مُنذر لـ«معاريف» وأُسكِتَ. وعندما نزل إلى القناة عشية رأس السنة، وجد معسكرًا مهملاً جدًا. وخلال عشرة أيام شغّل مرؤوسيه بقسوة لترميم الجدران، والبطاريات وقنوات الاتصال. وعندما تحقق من علائم تسلل تشهد على الاستعدادات للعبور، حاول أن يحذّر. وعندما لاحظ أن المصريين يخرقون الكتل الترابية الاسرائيلية. وعندما سمع أصوات دباباتهم. وبلّغ. وبلّغ. وبلّغ. من دون أية فائدة، بلّغ.

إلى أن أبلغوه في الواحدة والنصف ظهرًا في «يوم الغفران» أن حربًا شاملة ستندلع خلال أربع ساعات ونصف الساعة. وبعد نصف ساعة هطلت على المعسكر ضربة نارية شاملة. وخلال الأيام الستة التي تلت ذلك وقف مع رجاله وحيدًا. واجتاز ذلك.

لكن «الأولاد» أبناء التاسعة عشرة الذين حُطموا في ساحة المعسكر. الجنود اليائسين الذين صرخوا. القادة الكبار الذين سمعهم في اللاسلكي يستيقظون فجأةً من نومهم الدوغماتي، إلى انعدام وجهة مطلق، إلى فقدان السيطرة، إلى شعور بالرعب لن ينساه أبدًا.

المشترك حقًا لهذه الحرب ولتلك، يقول لي أشكنازي، هو أن الميدان هو الذي أمتحن في الحالتين. القيادة فشلت والميدان أمتحن. وفي أكتوبر ١٩٧٣ كان أولئك القادة

الميدانيون الذين ثبتوا الخط من جديد، بطريقة أو بأخرى. الذين سدوا الثغرات الاستراتيجية الكبيرة، بحيواتهم وبموتهم. بديناميكية وبسيطرة وبمواظبة وبشجاعة، صلحوا الأخطاء الفكرية الفظيعة. وفي ٢٠٠٠- ٢٠٠٣ الميدان هو السكان المدنيون. كل الاسرائيليين العاديين الذين ينوءون كل يوم تحت العبء الثقيل جداً، الناتج عن هذه الحرب معدومة الهدف. وينوءون تحت العبء الثقيل الناتج عن انعدام القيادة، وانعدام جسم جاهيري. ومع ذلك فإنهم يستمرون قدمًا. يسحبون إلى الأمام مثل رجال الحمّالات، في مسيرة الحمالات الفظيعة هذه. وعندما يتعب أحدهم يأتي آخر ويساعد. وعندما يتقوى الضعيف، يعود إلى الداخل ليحمل. وهكذا، بقوة هادئة تحتية، يحملون هذه الدولة الجريحة قدمًا. وحتى في إنعدام الطريق وفي إنعدام الموجِه فإنهم يحملون هذه الدولة النازفة قدمًا.

لكنكم في الواقع مذنبون، أتهم أشكنازي، فيما بدأت قطرات المطر بالتسرب إلينا. أنتم، الذين كان من المفترض أن يكونوا الجيل المكمّل لحركة العمل الاسرائيلية. أنتم، الذين كان من المفترض أن تكونوا الجيل المكمّل لريادة المشروع الصهيوني. ففي عودتكم من تلك الحرب أثبتّم قدرة إحتجاجية مثيرة للاطباع. أثبتّم فعلا أنكم ديمقراطيون محتجون. وصببتم في حياتنا الجماهيرية مناهج واضحة من الاحتجاج، المراقبة القضائية وتقديم الحساب. ولكن في نهاية الأمر عدتم إلى بيوتكم الخاصة من دون أن تبنوا الدولة من جديد. من دون أن تغيروا النظام الاشتراكي القديم بنظام ديمقراطي جديد. وفي عودتكم من ذلك الانهيار الكبير وقفتم هنا مقابل غولدا وضربت غولدا وهرّبتموها. لكنكم لم تعرضوا بديلاً لها. لم تملأوا الفراغ الذي تركته وراءها. ومن هنا نبع مركز «الليكود»، ومن هنا «شاس»، من هنا رافضي الجندية ومن هنا «عليه يروك» و«شينوي» واليسار البعيد.

لا اقوى على ترك أشكنازي المعذب. فكل تلك هي أمور لا تزال تلاحقنا منذ ثلاثين عامًا، لأن في عودتكم من تلك الحرب وفي إنهائكم لذلك الاحتجاج، هجرتم العمل السياسي الرائد. أخليتم الساحة لسياسة الاعلام، لسياسة الأعمال (التجارية)، لسياسة

المحاكم. أخليتم الحلبة لكل تلك البنى السياسية البديلة التي لا تتحلى بالمسؤولية. التي تثير الاحتجاج المتواصل. إلى أن اتضح في نهاية المطاف، وبعد هذه السنوات الضوئية، أنه لم يتبق أحد في الواقع ليُحتج ضده. أنه بعد كل هذه الاحتجاجات وكل الالتماسات إلى محكمة العدل العليا، وكل لجان التحقيق، فإن مباني الحكم في الواقع، قد فرغت. تحولت مباني الحكم إلى قلعة جوفاء. وفي تلك الغرفة الداخلية، الخاصة بدافيد بن غوريون وليفي إشكول وغولدا مئير -التي هاجمتوها جدًا- لم يتبق فيها أحد، في النهاية. فارغ هناك. فارغ جدًا هناك. لا أحد.

لماذا سيفوز أرئيل شارون في إنتخابات ٢٠٠٣؟ لأنه منذ حملة «السور الواقي» نحن نُقتل أقل، ولأنه منذ المواجهة مع بنيامين نتنياهو في مؤتمر «الليكود»، يبدو شارون مركزيًا (بأفكاره- المحرر) أكثر. ولأن خيار أن ينجح شارون في صد الهجمة الفلسطينية وفي الانتصار على عرفات، لم يُنفَ بعد. ولأنه في خطوة متسرعة واحدة، فتح القاضي حيشين من جديد، كل الجراح العميقة في المجتمع الاسرائيلي: لماذا لا تحترم النخبة الديمقراطية في إسرائيل، من انتخبه الشعب الاسرائيلي ليكون رئيس حكومة؟ لماذا لا ترتجف يد النخبة الديمقراطية في إسرائيل قبل أن تخرس الأصوات التي تبعث على إرتياحها؟ لماذا يبدو حاملو راية الليبرالية الاسرائيلية في أوقات متقاربة جدًا، في مزاج غير ليبرالي جدًا؟.

ولكن أرئيل شارون سيفوز بانتخابات ٢٠٠٣، بالأساس، لأن الاسرائيليين يفهمون اليوم أن مباني حكمهم خالية من البشر. وعلى الرغم من أن القليل فقط غير واعين لنواقص ونقاط ضعف شارون، فإنه ما زال يُنظر إليه من قبل الغالبية، على أنه القادر على أن يكون شبه إنسان، في مكان خالٍ من الناس.

وفورًا بعد الانتخابات ستندلع حرب. ٧٢٪ من الاسرائيليين يقدرون أن شارون قادر على إدارة الدولة في زمن الحرب. ١٢٪ فقط يعتقدون أن عمرام متسناع قادر على فعل ذلك. لذلك، ولأنهم خائفون، فإن الاسرائيليين سيختارون غض الطرف عن عائلة غبريئيلي وعن شلومي عوز وعن سيريل كيرن (أسماء لقضايا فساد مشتبه بها- المحرر).

لأنهم يشعرون بأنهم أيتام، فإنهم سيديرون ظهورهم لـ «الجزيرة اليونانية» وللمراكز الحدودية ولدودي أبيل (أسماء لقضايا فساد مشتبه بها- المحرر). فإسرائيليو ٢٠٠٣ يعرفون أن نخبتهم الديمقراطية، التي تروي لهم من دون انقطاع عن فساد «الليكود»، لا تروي لهم عن فساد آخر ليست فسادًا في «الليكود»، ويعرف إسرائيليو ٢٠٠٣ أن نخبتهم الديمقراطية لا تعرض عليهم أي بديل جدي لشارون. أية قوة قيادية مسؤولة بإمكانها -وملزمة- ملء المكان الذي يخلفه شارون.

ولذلك، فإنهم سيصوتون في نهاية هذه الحملة المعركة الانتخابية الملوثة، لتلك النقطة الحمراء التي وضعها ريؤوبين إدلر (صاحب مكتب الاعلان المسؤول عن حملة شارون الانتخابية- المحرر) بعد إسم شارون. نفس النقطة الحمراء التي تقول في الواقع إن شارون لا يملك ما يقوله، ولكن على الرغم من أنه لا يملك ما يقوله، فليس هناك ما يمكن التحدث عنه. شارون. من دون خيار شارون. من دون آخر شارون. لأنه من بين كل الجنود الذين عادوا من تلك الحرب، هو الوحيد الذي استطاع أن يصبح قائدًا. من بين كل هؤلاء الشباب هو الوحيد الذي تحول -بطريقته هو- إلى إنسان بالغ.

منذ البداية، كانت هذه إنتخابات زائدة. الموعد الأصلي الذي حُدد لها في تشرين الثاني ٢٠٠٣، كان الموعد الصحيح: بعد حرب الخليج الثانية، بعد الوصول إلى نقطة الفصل أمام الفلسطينيين، بعد أن كان سيكون واضحًا ما إذا كان شارون قادرًا على التحول من الجانب الحربي إلى الجانب السياسي، أم لا. فمنذ البداية، وبمجرد تبكير الانتخابات، تقرر أن تجري في أجواء «قبل»، فيما يشبه البوتقة المغلقة من عدم المعرفة. فيما يشبه الظاهرة الاضافية، الخطيرة جدًا، للديمقراطية المريضة.

ولكن خلال المعركة الانتخابية كُشف عن العديد من الحقائق الصعبة الجديدة. كُشف عن الفساد في «الليكود»، عن الميل الاعلامي في تغطية الفساد، عن نهج التسريب المنهجي، الذي يتدخل من غير وجه حق، في العملية الانتخابية.

كانت هذه المعركة الانتخابية الأولى منذ ثلاثين عامًا، التي لم يعد بها اليسار بالسلام. اليسار وعد بجدار، وليس بالسلام. وكانت هذه المعركة الانتخابية الأولى التي لم يعرض

فيها اليمين أي سبب للتفاخر . أي قاعدة للأمل . اليمين عرض شارون ، ولم يعرض الأمل . فعدا عن النقطة الحمراء السمينة التي وضعها ريئوبين إدلر ، لم تكن في هذه الانتخابات أية فرحة . الجو السياسي الذي ساد فيها كان حزينًا وكئيبًا . من دون أية بشارة ، من دون قيادة ، من دون إستقامة . في الوقت الذي تعدى فيه عمر الشخصيات الثلاث الأبرز في هذه الانتخابات (أرئيل شارون ، عوفاديا يوسيف وتومي لبيد) السبعين عامًا ، وهم يمثلون أحلامًا ضائعةً . في الوقت الذي تجمّعت فيه العناصر الأكثر استقرارًا في المجتمع الاسرائيلي حول تصويت قطاعي وعديم المسؤولية . مع «شاس» علمانية بيضاء ضد «شاس» حريدية سوداء . مع تهرب من جانب مدخني الماريغوانا ضد تهرب من جانب أصحاب الحُجُب . ومع شعور عميق جدًا بالعفن . بانعدام المعنى ، بانعدام الهدف ، بالتعفن .

اليسار فشل في هذه المعركة أكثر من اليمين ، لأنه عاند على ترشيح عمرام متسناع ، معدوم الأمل . ولأنه لم يهتم طوال سنتين ونصف السنة من الحرب ، بتطوير مفهوم جديد للسلام ، جذاب وسارٍ . ولأنه لم ينجح في أن يخلق من داخله ولو شخصية قيادية واحدة تكون ديمقراطية ومحبة للسلام وتبعث على الثقة أيضًا .

ولكن الأهمية التاريخية الحقيقية لهذه المعركة الانتخابية ، تبقى ، في المحصلة ، في أنها كشفت حقيقة عدم وجود نخبة اليوم في إسرائيل . هناك تجمعات قوى ، هناك تنظيمات مصالح ، هناك مجموعات مجموعات من المقربين ، لكن ليست هناك نخبة طبيعية . ليس هناك من يمسك بيديه المعيار للحقيقة الملزمة للجميع . وفي غياب هذا المعيار يغيب العدل . هناك جهاز قضائي ، ولكن ليس هناك عدل . وفي غياب مثل هذا المعيار تغيب الديمقراطية . هناك مؤسسات منتخبة ولكن ليس هناك ديمقراطية . وفي غياب مثل هذا المعيار تغيب أية قاعدة كانت يمكن أن تسير عليها حياتنا المشتركة .

فما توضح خلال هذه المعركة الانتخابية هو أن حكم الشخص الوحيد الموجود اليوم في البلاد هو حكم مُفسد . هذا الحكم فاسد . يمكن لهذا الحكم أن يوقع على رؤوسنا ، الأعمدة التي تحمل البيت .

وهكذا ، يبدو أن موطي أشكنازي على حق . تحليله الاقتصادي مبالغ به بعض الشيء ،

تحليله الاجتماعي راديكالي بعض الشيء، لكن في نهاية الأمر هناك الكثير من الحقيقة في أقواله. وحتى وهو ناءٍ، منسي، وغير متعلق لأول وهلة، فهو متعلق ربما أكثر من أي مرشح آخر في إنتخابات ٢٠٠٣. وبشكل عضالي، فإن موطي أشكنازي بالذات يجسد السبب العميق في وصول الجهاز السياسي الاسرائيلي، إلى ما وصل إليه، بعد ثلاثين سنة على حرب «يوم الغفران»، وبالذات أشكنازي يمثل الفشل الجيليّ الكبير لـ«التسباريم» (كنية لليهود الذين ولدوا هنا- المحرر)، الذين وُلدوا في الأربعينيات والخمسينيات. أولئك الذين عادوا من ذلك الشرخ الاسرائيلي الكبير، من دون أن ينجحوا في لأمه. أولئك الذين يحملون في داخلهم حتى اليوم، ما يشبه صدمة حرب صعبة. ما يشبه عقدة تكبيل عميقة. وهناك أمر ما يمكنهم من أن يصبحوا صحافيين موهوبين وقضائيين طموحين ومعارضين أشداء، ولكن ليس سياسيين.

وبسبب هذا، فإنهم ينمّون مرة بعد أخرى أنواعًا عديدة مختلفة من «السلام الآن» ومن «غوش أيمونيم» ومن «شينوي» من دون أن يكونوا قادرين على خلق حركة «عمل» جديدة. وبسبب هذا، هم ناقدون حادون كالسيف، لكنهم بنّاءون فاشلون. وإن كانوا أولمرت أو رامون، ميلو أو بيلين، فإنهم معدومو القدرة على تأسيس رؤيا أيًا كانت. معدومو القدرة على خلق نموذج مُجمّع. معدومو القدرة لقيادة إسرائيل بين مضائق قدرها.

ولكن كان بالامكان التعبير عن القليل من الرحمة، فيمكن الادعاء بأن ما كُشف عنه في هذه المعركة الانتخابية هو أن موطي، الانسان الوحيد، الواقف بالبوابة، ليس لوحده. فالوضع الانتربولوجي في الجهاز الاسرائيلي العام يجعل حتى أرئيل شارون إنسانًا وحيدًا يقف بالبوابة. وعمرام متسناع يشعر بأنه إنسان وحيد يقف بالبوابة. وربما يكون طومي لبيد أيضًا إنسانًا وحيدًا يقف بالبوابة. وميشئيل حيشين رجل وحيد يقف بالبوابة. وأهرون براك. والصحافي. ومحقق الشرطة. ومُسرّب الوثيقة. ففي إسرائيل عشية حرب ٢٠٠٣، كل مواطن هو إنسان وحيد يقف بالبوابة. كل واحد وواحد هو إنسان وحيد يقف بالبوابة. والبوابة مسدودة. والبواية مغلقة ومسدودة.

البرد هو ذات البرد بالضبط، يقول موطي أشكنازي ويتكور في معطفه. وهذا الشتاء،

مثل ذلك الشتاء، شتاء صعب جدًا. وعندما تدخل كاديلاك سلطوية من البوابة، يرافقها جيب بيجارو سلطوي، يحاول أن يعيد إحياء ثقته بالأوساط الدنيا. بالميدان. أيمانه مصبوب في الروح الجديدة التي ستظهر بعد الانتخابات من الجمهور المدني.

كل أولئك الاسرائيليين الذين وقفوا لوحدهم في اختبار النار هذا، يقول. كل أولئك الاسرائيليين الذي وقفوا لوحدهم في إختبار الوحدة هذا. ففي حال لم يستيقظوا الآن، يقول موطي أشكنازي، لن تكون أية جدوى فيما بعد. ليس أن الحياة ستواجه خطر الإفناء فورًا. لا. لكن طعم الحياة سيواجه خطر الإفناء فورًا. ولن يكون هناك ما يدفع لتحمل كل هذا، الحياة ستفرغ من أي مضمون. الحياة هنا ستكون شاحبةً، معتمة، ستكون حياةً بلا معنى.

دولة انتخابات

سلسلة تقارير صحافية
حول انتخابات ٢٠٠٣ في إسرائيل

يجوز القول إن عرض هذه السلسلة من التقارير على القارئ العربي، قد يكون فاتحة جيدة لتقوية تعامل العرب، في كل أماكن تواجدهم في العالم، مع الانتخابات الاسرائيلية، كحدث مُركّبٍ وعميقٍ، ولا يمكن إختزاله في الأسباب الجاهزة: رفض السلام، العنصرية، التشدد والاستسلام لشارون. هذه الأسباب، كلٌّ على إنفراد، وكلها مجتمعة، هي صحيحة. ولكنها وجهٌ واحدٌ للعملة. الوجه الثاني موجودٌ في أحياء الفقر، وفي أحياء الغنى؛ في غرف المعدمين والموظفين والعمال البسطاء، وفي غرف المثقفين والكتّاب المؤثرين؛ في هامش المجتمع الاسرائيلي الممزق، وفي مراكز إتخاذ القرارات.

من دون الوجه الآخر، يبقى التعامل مع التطورات الاسرائيلية الداخلية، التي تنعكس على سياساتها الخارجية وممارساتها الفعلية، تعاملاً منقوصًا وغير مكتمل. ونحن نعرف أن فهم الآخر جيدًا، هو الخطوة الأولى نحو مخاطبته بأدوات أفضل م[ن] أدواته.





المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
The Palestinian Forum for Israeli Studies (MADAR)